٢ مطبوعات جماعة الوعظ والدعوة الاسلامية ومجلة التقوى

القرآن

وصفه . هدايته . أثره . اعجازه

للمرحوم الأستاذ
محمد عبد العزيز الخولي

عنت بطبعها ونشرها
جماعة الوعظ والدعوة الإسلامية
ومجلة التقوى

المحرم سنة ١٣٥٧هـ

مطبعة التقوى شارع فؤاد رقم ٥٠ شبرا مصر

القرآن

وصفه . هدايته . أثره . اعجازه

للمرحوم الاستاذ

محمد عبد العزيز الخولي

عنت بطبعها ونشرها

جماعة الوعظ والدعوة الإسلامية

ومجلة التقوى

المحرم سنة ١٣٥٧هـ

مطبعة التقوى شارع فؤاد رقم ٥٠ شبرا مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين .

تصدير

الى أصحاب الجلالة ملوك المسلمين وأمرائهم ووزرائهم وحكامهم وشعوبهم ، تتقدم جماعة الوعظ والدعوة الاسلامية ومجلة التقوى بهذه الرسالة الصغيرة الحجم ذات المعانى الكثيرة وهى بعبارة أوضح مفتاح لأسرار كتاب الله المكنون والقانون السماوى والدستور الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد عرف لنا الحياة الدنيا فلم يكبر من شأنها والآخرة فخيرها عن سابقتها والرسالة من وضع الاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبد العزيز الخولى أول خطباء عصره ووعاظ قومه ، الرجل الفذ الذى كان مدرسا بالقضاء الشرعى ودار العلوم العليا ، وقد كانت وزارة المعارف المصرية طلبت اليه القاء محاضرة فى القرآن الكريم ولكن المنية وافته وهو فى إعدادها فلم تتحقق أمنية الوزارة فى القائها . وقد رأت الجماعة لما فى هذه المحاضرة من الفائدة العامة ان تخرجها الى العالم الاسلامى فى رسالة خاصة وقد ذيلتها بكلمتين إحداهما لحضرة محمد جاد المولى بك فى أثر القرآن الكريم فى الأحوال الخلقية والاخرى من نظم فضيلة الشيخ حسين خليل شمس الدين لتكونا متممتين لما بدأ به الفقيد رحمه الله رحمة واسعة راجين أن نكون قد قمنا ببعض ما يجب علينا من الترغيب فى كشف درر ولآلىء هذا الكنز الذى لا تحصى أسرار ما يتضمنه من الحكم والأحكام الصالحة لكل الاجيال والدهور

والله ولى التوفيق

رئيس تحرير مجلة التقوى

محمود عبد السلام

القرآن

١ — وصفه . هدايته . أثره

القرآن هو ذلك الكتاب الذى أنزله الله منجما فى اثنتين وعشرين سنة وشهرين واثنين وعشرين يوما تبتدىء من ليلة السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم حيث نزل عليه فى غار حراء أول ما نزل من القرآن (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) [1] اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) (سورة العلق)

وتنتهى بتاسع ذى الحجة يوم الحج الأكبر من السنة الثالثة والستين من ميلاده صلى الله عليه وسلم حيث نزلت

---

(١) العلق الدم الجامد الذى تعلق بعضه ببعض

آية الختام (اليوم أكملت لكم دينكمْ وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكمُ الاسلامَ دِينا (٣) سورة المائدة

أنزل الله على صفيه من خلقه ومجتبـاه من عباده محمد بن عبد الله اليتيم الأمى الذى لم يذهب الى مـكتب أو مدرسة ولم يجلس الى أستاذ يأخذ عنه ويتعلم منه ـ اللهم الا أستاذه جبريل الذى كان يدارسه القرآن بعد النبوة ـ وما كان بديار قومه معاهد للتعليم ولا أساتيذ للتربية وما رحل فى طلب العلم الى غيرها من بلاد الامم الأخرى إن كانت الا رحلتان قصيرتان الى بلاد الشـام احداهما مع عمه أبى طالب فى تجارة له وكان محمد يومئذ حدثا والأخرى فى تجارة لخديجة بنت خويلد مع غلامهـا ميسرة ـ أنزله الله على هذه النفس الفطرية فنطقت بالآيات البينة والحكم البالغة وصدَرَت عن الأمية قواعدُ الصلاح فـكان ذلك عند أولى العلم المنصفين آية واضحة وحجة دامغة على أن القرآن صنع الله لا صنع محمد (وَما كنتَ تَتلو مِن قبلهِ من كتابٍ وَلا

تخطُّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون (٤٨) بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون (٤٩) (سورة العنكبوت) وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا (٥٢) (سورة الشورى) وانك لتهدي الى صراط مستقيم

* * *

القرآن هو الكتاب الذى خط بقلم الحكمة الالهية وأملى من علم الله المحيط وحمله الملائكة الاطهار حتى وصلوا به الى محمد المعروف بالصدق والامانة فتلقفه عنهم وبلغه للناس كما بلغه وكما كتبه ربه لا تغيير ولا تبديل ولا دس ولا تحوير (إنه لقرآن كريم (٧٧) في كتاب مكنون (٧٨) لا يمسه الا المطهرون (٧٩) تنزيل من رب العالمين (٨٠) (سورة الواقعة) انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (٩) (سورة الحجر)

القرآن هو الكتاب الذى انتظم من العقائد الصحيحة والآداب الحميدة والأخلاق العالية والأعمال الصالحة ماهو كفيل بسعادة البشر فى دنياهم الحاضرة وحياتهم الثانية لو أنهم دانوا بما أوجب وتأدبوا بما سنّ وتخلقوا بما بين وعملوا بما شرع فهو الدواء لعلل البشر النفسية ، وأمراضهم الخلقية ومشاكلهم الاجتماعية لو أنهم تجرعوه وما هو بالمر المذاق ولا بالصبر الزعاف ولكنه العذب الفرات لمن تناوله بشهية وتقبله بنفس رضية (وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْءانِ ماهو شفاء وَرَحمةٌ للمؤْمِنِينَ وَلاَ يزيدُ الظالِمِينَ الا خَساراً) (٨٢) الاسراء : (يا أَيُّها الناسُ قدْ جاءَتكم موعظةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وشفاءٌ لما فى الصدُور وَهدى ورحمةٌ لِلمؤْمنينَ . قلْ بفضْلِ اللهِ وبرَحمَتِهِ فبذَلكَ فلْيَفرحوا هو خيرٌ مِمّا يجْمعون قلْ هوَ لِلذين آمنُوا هدًى وشفاءٌ والَذين لايؤْمنُونَ فى آذانِهم وَقرٌ (١) وهوَ عليهمْ عمًى (٢)

---

(١) ثقل وصمم (٢) معمى مبهم

أولئكَ ينادَوْنَ منْ مكانٍ بعيدٍ)

القرآن هو ذلك التشريع الفسيح الرحب الوسيع الذى يتسع للناس جميعاً مهما اختلفت لغاتهم وتباينت بلادهم وتفارقت عاداتهم وتنافرت طباعهم لأنه لا يكلف الناس مالا يطيقون ، ولا يدعوهم الى مابه يتحرجون (لا نكلفُ نفساً الاّ وُسعها) (ومَا جعلَ عليكُمْ فِى الدِّينِ منْ حرجٍ (١)) ولا يقف فى سبيل تمتعهم بالطيبات وتزينهم بمختلف الزينات ماآمنوا وعملوا الصالحات (قلْ منْ حرَّمَ زينةَ اللهِ التى أخرجَ لعبادهِ والطيِّباتِ منَ الرِّزْقِ قلْ هي للذينَ آمنُوا فى الحَياةِ الدنيا خالصةً يومَ القيامةِ كذَلكَ نفصِّلُ الآياتِ لقوْمٍ يعلمونَ(٣٢):سورة الاعراف: (ياأيُّها الذين آمنُوا كلُوا منْ طيِّباتِ ما رَزقْناكم واشكرُوا للهِ انْ كنتم اياه تعبُدُون (١٧٢):سورة البقرة: (ليسَ على الذينَ ءامنوا وعملوا الصالحاتِ جناحٌ (٢) فيما

---

(١) ضيق (٢) اثم

طعِموا إذا ما اتَّقوْا وآمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ ثمَّ اتقوْا وآمنُوا ثمَّ اتقوْا وأحْسنوا واللهُ يحب المحسِنين (٩٣) :سورة المائدة : ثم هو لا يأمر الا بمعروف ولا ينهى الا عن منكر ويقدر الحاجات والضرورات ويسن لها من الشرائع والاحكام مايذلل صعابها ويتقي به ضرها ويدع الناس فى بحبوحة ورخاء وسعة وهناء (ومنْ كانَ مريضا أو على سفرٍ فعِدَّة منْ أيام أخرَ يرِيدُ اللهُ بكمُ اليسرَ ولا يُرِيدُ بكمُ العُسر) من آية (١٨٥) سورة البقرة (وانْ كنتمْ مرْضى أوْ على سفرٍ أوْ جاءَ أحدٌ منكم من الغائط (١) أوْ لامَستمُ النساءَ فلمْ تجدُوا ماءً فتيمَّموا صعيداً طيِّبا فامْسحوا بوُجوهكُمْ وأيْديكمْ منهُ مايريدُ اللهُ ليجعل عليكمْ منْ حرجٍ ولكِنْ يريدُ ليطهِّركمْ ولِيتمَّ نعمتهُ عليكمْ لعلكمْ تشكرُون) من آية (٦): سورة المائدة: (قلْ لاأجدُ

---

(١) جاء من الغائط قضى حاجته والغائط المكان المنخفض كانوا يقضون فيه حاجتهم

فى ما أوحى الىَّ محرَّماً على طاعمٍ يطعمُهُ الاَّ أنْ يكون ميتةً أوْ دماً مسفوحا أوْ لحْم خنزيرٍ فانهُ رجس أوْ فسقا أهِلَّ لغيرِ اللهِ بهِ فمنِ اضْطرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فانَّ ربَّك غفورٌ رحيمٌ (١٤٥) : سورة الأنعام :

ومن الآيات البينة على أن القرآن شريعة عامة للناس كافة من يوم أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم الى أن يرث الله الارض ومن عليها ، إن الأشياء التى لا يؤثر فيها مرُّ الزمان ولا تختلف باختلاف الاقوام بيَّنها القرآن تفصيلا وما يختلف باختلاف الاحوال ويتغير بتغاير الامم وضع أصوله العامة وقواعده المطردة وترك التفصيل والتطبيق الى ماتقتضيه المصلحة ويلائم الحاجات الوقتية والظروف الخاصة ولذلك تجد أحكام العبادات مفصلة فى القرآن المشروح بعمل الرسول صلى الله عليه وسلم ففيه بيان الصلاة والصيام والحج وكذلك بيان الميراث والزواج والطلاق والعِدَد . أما العقائد فقد تعرض لها القرآن بياناً واستدلالا

من توحيد الله وذكر صفاته والايمان بفناء النوع الانسانى وبعثه ونشره وحشره وسؤاله عن كل ماعمل ومجازاته بالجنة أو النار وكذلك الايمان بالملائكة والكتب والرسل الخ لان هذه حقائق ثابتة كالعبادات لاتحوير فيها ولا تغيير فنص عليها القرآن تفصيلا أما المعاملات كالبيع والاجارة والمضاربة والهبة والقيام على مال اليتيم فمنها ماذكر القرآن له أحكاماً عامة ومنها مالم يذكر شيئا عنه لتوضع أحكامه بحسب أصول الشريعة العامة وقواعد العدالة مراعى فيها مقتضيات الزمان وعرف الاقوام فما تعرض له إجمالا البيع والاجارة والتصرف فى مال اليتيم ؛ ففى البيع جاء قوله تعالى (يا أيها الذين ءامنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطلِ إلا أنْ تكون تجارة عنْ تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفسكم انَّ الله كان بكم رحيما) (٢٩) سورة النساء (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطلِ وتدلوا (١) بها الى الحكامِ لتأكلوا فريقاً من أموالِ

---

١) اى تلقوا أمرها والحكومة فيها الى الحكام او تقدموها رشوة لهم

الناس بالاثم وأنتم تعلمون) (١٨٨) سورة البقرة

(ياأيها الذين ءامنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) (٩) : سورة الجمعة

(رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) من آية (٣٧) سورة النور.

وجاء فى الاجارة عبارة عامة مثل قوله تعالى (فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن) من آية ٦ سورة الطلاق

(انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك) من آية (٢٧) سورة القصص

وجاء فى التصرف فى مال اليتيم (وابتلوا (٢) اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فإن آنستم (٣) منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا (٤)

---

(٢) اختبروا (٣) علمتم (٤) اى مبادرة لكبرهم فيقولون نأخذ

أنْ يكْبرَوا ومن كان غنِيـا فَليستْعفف ومنْ كان فقيراً فليأكلْ بالمعرُوف ، فاذا دفعتمُ اليهِم أموالهم فأشهدُوا عليهِمْ وكفى بالله حسِيبـا) (٦) سورة النساء

(وَلا تَقربُوا مال اليتيم الا بالتى هى أحْسن حتى يبلغ أشدَّهُ) من آية (١٥٢) سورة الأنعام

فتراه أمر باختبـار اليتيم ولم يبين طريق الاختبـار وأمر بدفع المـالِ اليه اذا بلغ النكاح ـ ولم يعين وقته ـ وآنسنا منه الرشد ، ونهى عنْ أكل شىء من ماله ومنع الوصى إن كان غنيا من أخذ الاجر وان كان فقيرا أجاز له الاكل بالمعروف فترك تقدير الاجر أو الاكل الى العرف ، ثم أمر الوصى بالاشهاد عليه عند دفع المال اليه تبرئة لذمته ومراعاة لمصلحته

وانظر موقع قوله تعالى (وكفى بالله حسيبا) مما سبقها فالله من وراء الخبراء والقضاة والحكام محاسب الاوصياء

من أموالهم ما نشتهى قبل ان يكبروا فينتزعوها من ايدينا

حسابا عسيرا فلئن أغفلوا شيئا فما ربك بغافل فليراقبوا الله ربهم ثم انظر الى الاجمال فى قوله (بالتى هى أحسن) فذكر أن التصرف فى ماله بالطرق الحسنة ولم يفصل هذه الطرق لانها متشعبة ومختلفة باختلاف العصور والأمم

ومما لم يتعرض له القرآن المضاربة أو القراض فترك تفصيل أحكامه لأولى العلم الراسخين والقضاة المجتهدين يضعونها بحسب حاجات الزمان مع ملاحظة أصول الشريعة . ولأن الجرائم لا يحصى عددها وللزمان كل يوم فيها محدثات وللناس فيها تفنن ولكل جريمة عقاب مناسب وما جزاء السيئة الا مثلها ـ لأن الجرائم بهذه المثابة لم يتعرض القرآن لتحديد العقوبات لها اللهم الا جرائم خاصة اقتضت حكمته تحديد عقوباتها الدنيوية وهى السرقة والزنى والقذف والقتل والتعدى على الاطراف ، وما عدا ذلك فوضع له قواعد عامة يطبقها ولاة الامر من المسلمين والأئمة المجتهدون مثل قوله تعالى (وجزاؤا سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره

على الله إنه لا يحب الظالمين (٤٠) ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) (٤١) سورة الشورى

(إنما جزاؤ الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وارجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم في الاخرة عذاب عظيم (٣٣) الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم) (٣٤) سورة المائدة

* * *

القرآن هو الكتاب الذى لم يذكر العقائد والآداب والاحكام جافة كما ترى فى كتب الكلام والفقه والاخلاق خصوصا ما ألفه المتأخرون. بل وضع فى جانبها وفى خلالها ما يدعو إلى احترامها والعمل بها ائتمارا بأمرها وانتهاء عن نهيها فأحاطها بضروب من الترغيب والترهيب فضرب الامثال للعالمين وسرد القصص للمعتبرين وبين الحكم والمصالح

للعقلاء المفكرين ورتب على العمل بها من السعادة فى الدنيا والآخرة ما يغرى الراغبين ويلهب النفعيين فانظر قوله تعالى (مَثَلُ الذِينَ يُنفِقُونَ أَموالَهُمْ فى سبيلِ اللهِ كَمثَلِ حبَّةٍ أَنبتت سبعَ سنابلَ فى كلِّ سنبلةٍ مائةُ حبةٍ واللهُ يضاعفُ لمن يشاءُ واللهُ واسعٌ عليمٌ)(٢٦١)سورة البقرة

(مَثَلُ الذِينَ كَفَرُوا بربِّهِمْ أَعمالُهُمْ كرمادٍ اشتدت بهِ الريحُ فى يومٍ عاصفٍ لا يقدِرُونَ ممَّا كسبوا على شىءٍ ذلك هو الضَّلالُ البَعيد)

(أَلمْ ترَ كيف ضرب اللهُ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيِّبةٍ أُصلها ثابتٌ وفرْعها فى السماءِ تؤْتِى أُكلَها كلَّ حينٍ بإِذْنِ ربِّها ويضرِبُ اللهُ الأَمثال للنَّاس لعلهم يتذكَّرُون ٢٥ ومثلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثة اجتُثَّتْ (١) من فوقِ الارضِ ما لها من قرارٍ (٢٦)سورة ابراهيم

وذكر لنا من قصص آدم ونوح وهود وصالح

---

(١) قطعت

وإبراهيم ويوسف وموسى وعيسى وغيرهم ما كله عبر وعظات . وانظر إلى قوله تعالى فى سورة هود بعد أن حكى أنباء جمع من الأنبياء : « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ . وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ (١) عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (٢) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » وترى الله يقول فى سورة المائدة بعد أن ذكر أحكام الوضوء والغسل : « مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ويقول فى سورة النساء تعليلا للنهى عن نكاح ما نكح الآباء : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ

---

(١) ما أغنت عنهم أى ما نفعتهم (٢) هلاك

سبيلا » ويقول: « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » ويقول فى تعليل النهى عن تعاطى الخمر والميسر الخ: « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة » وجاء فى القرآن كذلك: « ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا » « وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا » « إدفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » « وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » — إلى غير ذلك من التعليلات والحكم الكثيرة التى أردفت فى القرآن بالأوامر والنواهى ، ومن الآيات التى رتبت السعادة فى الدنيا والآخرة على العمل الصالح قوله تعالى « : ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل

على الله فهوَ حسبهُ » « وَمَن يَتق الله يَجعل له مِن أمرهِ يُسرا » « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينَّه حياة طيبة ولنجزِينَّهم أجرَهُمْ بأحسنِ ما كانوا يعملون » « وياقوم استغفروا ربَّكم إنه كان غفاراً يرسلِ السماءَ عليكم مدراراً ويمددكم بأموالٍ وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعلْ لَكم أنهاراً » « وأن استغفِروا ربَّكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسناً إلى أجَلٍ مسمَّى ويؤتِ كلَّ ذى فضلٍ فضلَه » « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماءِ والأرضِ ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » « وسارِعوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنَّةٍ عرضُها السموات والأرض أُعِدَّت للمتقين الذين يُنفِقون فى السرَّاء والضراء والكاظمينَ الغيظَ والعافينَ عن الناس والله يُحبُّ المحسنين » « إنه من يأت ربَّهُ مُجرماً فإن له جهنم لا يموتُ فيها ولا يحيي ومن يأته مؤمنا قد عمِل الصالحَات فأولئك لهم الدرجات العلا » والقرآن مملوء بأمثال هذه الآيات وليس غرضنا

الاستقراء بل التنبيه بها على أمثالها . فالراغب فى الدنيا ومتاعها، عليه بالدين ، والراغب فى الآخرة، دونه الدين، ومن لم تهده آيات الرغبة ربما أقامته مواضيع الرهبة ، ومن يحب الآداب من طريق القصص فعليه القصص القرآنى ، ومن يحبها من طريق البحث والعقل والحكمة فليأخذها من تعليلات القرآن فانه ماترك مبهماً لانتهاج الخير الاسلكه فكل صنف من الناس به اليه حاجة وله فيه غاية ، والله الهادى إلى سواء السبيل ؟

القرآن

٢ — وصفه . هدايته . أثره

القرآن هو الذى سلك للتأثير فى النفوس وهدايتها ، إلى ما يحييها والأخذ بحجزاتها عما يشقيها ـ مسلكا خطابياً أخّاذاً جذاباً ـ قد ساير الحقائق جنباً لجنب ولم يهم فى أودية الخيال كما يهيم الشعراء وأكثر الخطباء ، بل كان فى بيانه الخلاب وعباراته العذبة ، مقرراً للحقائق وداعما بالآيات البينة ، والحجج الناطقة التى لا تقبل فى شرعة الانصاف جدلا ولا مناقشة ولا حوارا ، ولا مراجعة ، ولذلك وصفه الله بقوله: (هُدى للناسِ وبيِّنات من الهُدى والفرقانِ) «البقرة» فذكر أنه بينات وبراهين ساطعات ، ولكن لا كبراهين المنطقيين التى يشكلونها بأشكالهم المعروفة فانها براهين جافة . ربما مجتها النفوس واستثقلتها الطباع ، وربما مكنت العقول فى تعرفها وتفهم الصلة بين أولها وآخرها واعتصار نتائجها من

مقدماتها ـ ربما مكثت وقتاً طويلا ، ولا كذلك براهين القرآن فانها لطيفة الملمس ، طيبة المخبر ، واضحة المقصد ، تجارى الفطر وتساير العقول ، مع تأثير فى النفس غريب يأخذ بها الى مراتب الكمال .

فبينات القرآن ـ مع ما فيها من التفرقة بين الحق والباطل ـ هادية مرشدة تسلك بالانسان سبيل الخير وتأخذ به عن مواطن الشر .

وإنى لمتدبر معك أيها القارئ الآيات الأولى من سورة النحل ـ الى قوله تعالى (إنه لا يحب المستكبرين) لتعرف صدق ماذكرت وبرهان ماادعيت . فان هذه الآيات سيقت لابطال أن يكون لله من خلقه شريك يُعبد كما يُعبد ويُدْعَى كما يُدْعى ، أو يتقرب به الى الله زلفى

فتراه فى أول سورة النحل يقول : (أتى أمرُ اللهِ فلا تستعجلوه) فبدأ كلامه بالوعيد وأنه مدرك المشركين لامحالة وقال: (سبحانه وتعالى عما يشركون) فنزه نفسه عن شركائهم

ونبا بشأنه عن شأنهم ، وبين أن القرآن أنزله فيما أنزل على من تخيره من عباده ليرشدهم الى مصالحهم ويحذرهم بأس الله إن لم يرعووا عن شركهم (فما لهم لا يؤمنون ، وإذا قُرِئَ عليهمُ القرآنُ لا يسجدون ؟) ألا فليتقوه وليخافوه ويحذروه فان أخذه شديد ، وإن عذابه أليم .

ثم أخذ فى إقامة الحجة على إبطال الشركاء ، فذكر أنه خلق السموات والأرض بالحق ثم نزه نفسه عن الشريك وكأنه يشير بهذا التعقيب الى أن من هذا صنعه لا ينبغى أن يشرك به خلقه .

ثم ذكر خلقه للانسان من النطفة وتربيته له حتى صيره بشراً سوياً ، فكان عليه أن يشكر له نعمة التربية ولكنه كفر بها وأصبح لربه خصيماً مبيناً بدفاعه عن الشرك ومحاماته عن الأنداد . وذكر عقب ذلك خلقه للأنعام شارحاً مالنا فيها من المصالح والمنافع بأسلوب بديع ، وخلقه للخيل والبغال والحمير وما أعدت له ، فانه يخلق مالا نعلمه مما حدّث به العصر

من دراجات وسيارات ، وطيارات وغواصات وقطر ، وباخرات ، وكأنه بذلك يبين أنه قائم بتدبير شأن الانسان وسد حاجه ، وما اتخذوه من دون الله . لايقوم بشيء من ذلك فلم يشرك به ؟ ثم ذكر هذه الجملة: (وعلى الله قَصْدُ السبيل ، ومنها جائر) ليبين نعمة أخرى له : نعمة الهداية وبيان الطريق الحق الذى إذا سلكه الانسان نجا ، وإن تنكبه ضل وغوى .

ثم رجع الى تعداد نعمه ، فذكر الماء وآثاره الجمة من إحيائه للانسان وإنباته للأشجار التى يسيم فيها الحيوان ، وفصلها بالزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات،وحثنا على التفكر فيها لاستنباط العبر منها والوصول الى معرفة بارئها المعرفة اللائقة بجلاله وعظمته وأنه جدير بالتوحيد والإفراد بالعبادة والخضوع ، وذكر خلقه لليل والنهار — الأول للانسان لباس ، والثانى له معاش — وخلقه للشمس والقمر ، اللذين هما آيتا الليل والنهار ، وأنهما والنجوم

خاضعات لأمر الله تعالى لا تخرج عن نظامه الذى أبدعه ، ولا عن سننه الذى وضعه . وفى ذلك آية بينة ، لمن عقل وتفهم وتبصر وتدبر .

وذكر بعد ذلك أنه خلق فى الأرض أشياء مختلفة فى الأشكال والألوان والطبائع والمنافع ، وأن فيها آية للمتفكرين

وذكر البحار وثمراتها من الأسماك والحلى ، وسير الفلك فيها لابتغاء الرزق والعلم ، وذكر الجبال والأنهار ، والسبل التى يهتدى بها السائر كما يهتدى بالنجوم

ذكر كل هذه المخلوقات العظيمة ، التى غمر الانسان بمزاياها ومنافعها وسلطه على تسخيرها فى تدبير شؤونه ، وتوفير حاجاته ذكرها لإبطال الشركاء كما نبينه ولكنه لم يسردها سردا ، ولم يعدها عدا كما نعد الأشياء ، بل أفادك فى الاثناء معلومات قيمة ، وثمرات طيبة ، وحثك على أن تنفذ منها إلى عظمة مبدعها . فلم يكن العد بذلك ثقيلا على النفس بل كان حلواً مستمرأ شهياً مستطاباً .

ثم خلص من عدا المخلوقات إلى هذه الجملة الحكيمة ، التى لا تستقر إلا فى هذا الموضع : (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ؟) (النحل) فأتم بذلك الحجة على أن من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا يخلق شيئاً لا ينبغى أن يكون لله نداً «إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً» مريم . فألقم المشركين بذلك حجرا ولم يبق لهم عذراً .

وكأنى بالقارىء ، وقد وصل الى هذه الجملة ، وتدبر ما سبقها وفكر فيما تقدمها وقف مبهوتا صاغراً أمام هذه الطريقة المثلى التى سلكها القرآن فى حجاجه ، وبرهن بها على صدق قضاياه ، وصحة نظرياته ، طريقة تخر لها طرق المناطقة ساجدة ، مسبحة لله ممجدة .

وانظر كيف عقبها الله بقوله : (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟) «النحل» حثاً لنا على الادكار والاعتبار ، فان الذاكرين المفكرين هم الذين يقفون على أسرار القرآن ، وهو الذى تخالط حلاوته قلوبهم ، وتروى منه أفئدتهم ، وتحيا به عقولهم .

أما الذين يمرونه على ألسنتهم مراً لايجاوز تراقيهم ، ولا يعدو آذانهم ، فأولئك فى قلوبهم عَمًى ، لا يبصرون فى القرآن هُدًى .

وكما عدد كثيرا من النعم قبل هذه النتيجة الحكيمة عقبها بأن نعم الله لا تقف عند ما فصل وبين ، بل هى لا يحصيها العد ، ولا يضبطها القلم . فكيف يسوّى ربٌّ هذه نعمه بمخلوق هذا شأنه ؟ إن ذلك وزر كبير وظلم عظيم يستدعى مؤاخذة عاجلة ومناجزة قاتلة . ولكن الله رحيم بعباده يؤخر عقابهم رجاء أن يثوبوا إلى رشدهم ويرجعوا عن غيهم .

ثم ذكر تعالى أنه يعلم سرهم وعلانيتهم ، وأن آلهتهم لا تعقل ولا تفهم ، ولا تبصر ولا تسمع ، فلا سبيل لها إلى المعرفة فكيف تسوى بمن أحاط بكل شىء علما ؟

ثم تدرج جل شأنه فى البرهان ، فبين أن هذه الآلهة مع كونها لا تخلق شيئاً فلا تسوى بالخالق ، هى لله مخلوقة ، ولمعونته محتاجة ، فكيف نستنصر بعاجز ضعيف ونترك

قويا قهارا ؟ كيف نستنجد بالأموات وندع رب الكائنات ثم صرح بالدعوى التى ذكرها أول سورة النحل فقال : — « إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ » . وبين أن الحامل لهؤلاء الكفار على مجانبة هذه الدعوى مع وضوح دليلها ، ونصوع برهانها ، وبداهة مقدماتها إنما هو استكبارهم وعنادهم وبغيهم واستعلاؤهم وقد قال تعالى : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرونَ فى الأرضِ بغيرِ الحق وإن يَروْا كلَّ آيةٍ لا يؤمِنُوا بها وإن يَرَوا سبيلَ الرُّشد لا يتخذوه سبيلاً وإنْ يَروا سبيل الغىّ يتخذوه سبيلا . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين »

وحجاج القرآن كله على هذا النحو البديع الذى تسترسل معه النفس ، ويسلس به قياد العقل . انظر قوله تعالى حكاية عن واعظ المدينة : (أأتخذ من دونِهِ آلهةً — إن يُرِدْنِ الرحمنُ بضُرٍّ لا تُغنِ عنّى شفاعتُهم شيئًا ولا يُنقِذون — ؟ إنى إذا لفى ضَلال مبين !) « يس » . وتأمل مجادلته لأهل الكتاب

(ولا تجادلوا أهلَ الكتابِ إلا بالتى هى أحسنُ - إلا الذين ظلموا منهم - وقولوا آمنّا بالذى أُنزِلَ الينا وأُنزِلَ اليكم وإلٰهُنا وإلٰهُكم واحدٌ ونحن له مسلمون) «العنكبوت»، وتبصر قوله (وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم ؟ أهم يقسِمونَ رحمة ربِّك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتَهم فى الحياةِ الدُّنيا ورفعنا بعضهُم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ليتخذَ بعضهُم بعضاً سِخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون) وقوله الذين طعنوا على القرآن بنزوله: مفرقا (وقال الذينَ كفروا لولا نزِّل عليه القرآنُ جُملةً واحدةً ؟ كذلك لنُثبِّتَ به فؤادَكَ ورتّلناهُ ترتيلا ولا يأتونك بمثَلٍ إلا جئناك بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً) وفى مثل هذا المعنىَ قولهُ تعالى:(وقرآناً فرقناهُ لتقرأهُ على الناسِ على مُكثٍ ونزّلناهُ تنزيلا) وانظر رده تعالى على الذين اقترحوا على محمدٍ صلى الله عليه وسلم أنزال آيات معينة ليؤمنوا به يأخذك العجب ويستولى عليك الدهش من قوة الجواب وقضائه على كل

شبهة وإزالته لكل ريبة . وذلك فى قوله تعالى:(وقالوا لن نُؤمِنَ لكَ حَتَّى تُفَجِّرَ لَنامن الارضِ يَنْبُوعاأو تكونَ لك جنةٌ من نخيلٍ وعنَبٍ فتفجِّرَ الانهَارَ خِلالَهَا تفجيراً أو تسقِطَ السماء كما زعَمت علينا كسفاً (١) أو تأتىَ بالله والملائكة قَبيلا (٢) أو يكونَ لك بيتٌ من زُخْرُف (٣) أو ترْقَى فى السماءِ ولن نُؤمِنَ لِرُقيِّك حتى تنزِّل علينا كتاباً نقرأُه . قُل سبحانَ رَبِّى ! ! هل كنت إلا بَشَراً رسُولا ؟)« الاسراء »

ولولا خشية إطالة الموضوع لسردتلك الكثير من أمثال ذلك ونحن إنما يهمنا تنبيهك بالأمثلة الى تلك الخطة الحكيمة التى ارتسمها القرآن فى الاستدلال فالان بها الطباع الجامدة وحرك بها النفوس الساكنة وفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صما وقلوباً غلفا. فاذا أردت أن تحسن الجدال وتأخذ به الخصوم وتدرك به الغاية وتقطع العذر على معارضيك

---

(١) قطعاً (٢) جماعة (٣) ذهب

فانهج منهج القرآن فانه أهدى سبيلا وأقوم قيلا وأحسن تأويلا .

القرآن هو الكتاب الذى إذا لازمه الانسان واتخذ منه خليلا وسميرا وأقبل عليه يتلوه حق تلاوته يتفقهه كلمة كلمة ، وجملة جملة ، وآية آية ، وسورة سورة ـ أفاض عليه من الهداية مايجعله كبير العقل صادق الرأى نافذ البصيرة قوى الحسّ طاهر النفس يأتى كل خير ويذر كل شر (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم)«الاسراء» ولقد تأثر به الجن ساعة سمعوه وامتلأت قلوبهم بمحبته وإجلاله حتى أسرعوا لدعوة قومهم اليه :(فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا) «الجن»و:(قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم)

وكيف لا يكون للقرآن فى النفوس هذا الأثر وله

عليها هذا السلطان الذى يفعل فيها مالا تفعله القوى القاهرة وقد وصفه الله بقوله: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) «الحشر»

ولا ن القرآن هو الأستاذ الكبير والمربى العظيم ذو الارشاد الحميد والأثر المجيد، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بتلاوته خصوصاً فى وقت هدوء الليل وسكون الجو وراحة النفس وصفاء العقل وخلوه من الشواغل والاسترسال وراء الحس فقال له: (اقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً (١)) فالنفس تشهده والقلب يحضره وقال له:

---

(١) فى البخارى فى كتاب التفسير عند قوله تعالى: (إن قرآن الفجر كان مشهودا) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح» يقول أبو هريرة اقرؤا إن شئتم: (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) اهـ. فهذا يدل على أن قرآن الفجر غير التهجد فى الليل.

يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) فامره بترتيل القرآن لتقوى نفسه فتستطيع القيام باعباء الرسالة والدعوة إلى الله والصبر على مناوأة الاعداء

وإن ربك لمحدثك عن مشاهدة ومخبرك عن عيان ما وجدت معضداً على تحمل متاعب الحياة ولا مخففاً لنوائبها ولا مذيباً لشدائدها ولا مسليا عن فائتها أكبر من هذا القرآن ، إنه ليحيل التعب فى سبيل الجهاد إلى راحة والألم إلى لذة والشقاء إلى سعادة وإن الخطب لينتابك وقد كبر عليك حلوله وهالك نزوله فاذا ماالجأت إلى القرآن وتدبرت آياته وتفهمت عظاته وقرأت من قصص المرسلين والأئمة المصلحين وما أصابهم من ضروب الايذاء وسهام الأعداء دق الجليل وهان العظيم وتبددت الاحن وكأن لم تكن وإذا ساورتك الهموم وتملكتك الاحزان فاستعن عليها بآى القرآن واملأ قلبك بخشية الله فلا ترى غماً ولا هماً

ولا حزنا ولا ألما.

وكان خليقا بالمسلمين وقد يسر الله لهم القرآن وسهل عليهم حفظه حيث أوجد المطابع التى كثرت بها المصاحف كثرة لم يبق معها اقتناء المصاحف على أى أحد عسيرا ، خليق بالمسلمين والحالة هذه أن يهبوه من وقتهم ولو قليلا ومن تفكيرهم ولو يسيرا ولا يضنوا عليه بعشر ماينفقونه فى قراءة الفقه والاصول وكتب الكلام والفلسفة ، بله القصص والروايات والاساطير والخرافات ولكن هجروا القرآن وصدق عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عنه ربه (إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هَذَا القرآن مَهْجُورا) فهل لهم أن يعودوا إلى حصنهم الحصين وناصحهم الأمين وانه لبين أيديهم ؟ : ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ ؟

القرآن

٣ — وصفه . هدايته . أثره

القرآن هو الكتاب الذى لايحتاج إلى دليل من الخارج لبيان أنه من عند الله وأنه وحيه أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم بل دليله فيه وحجته معه وآيته منه فقد جاء على يد أمى نشأ فى أمة أمية لا تعرف التاريخ القديم ، فقص علينا من أخبار الأمم السابقة التى بادت من آلاف السنين بل قص علينا تاريخ الانسان الأول يوم لم يكن غيره يكتب عنه ما عمل ويصف ما شاهد،قص علينا ذلك بأسلوب غير معهود فى عبارات المؤرخين .

فتراه يتعرض للحوادث الهامة بنوع من الاجمال قد خلا من التفصيل الذى لامدخل له فى مورد العبرة ، ولا فى استنباط العظة ، فقلما يتعرض لذكر المكان ، أو لساعة

الحادث ، أو ذكر من مثلوا القصة تفصيلا ـ انما يذكر الجرائم التى اقترفتها الأمم السالفة محيطها بما ينفر الناس منها ويبغض اليهم اقترافها ثم يتبعها بالعقاب الذى أنزله بأهلها مبينا سنته فى الأمم المجرمة والأعضاء الفاسدة ، وأنه مطهر الأرض منها حتى لا يضلوا عباده ولا يلدوا الكفرة الفجرة ويتقصى من تبعة القضاء عليهم بأن ذلك جزاء ما اقترفوا ، وعقاب ما اجترموا جزاء وفاقا « ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » . « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » . « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا » . « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ، وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا ، وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »

ويبين الأعمال الطيبة التى كسبتها الأمم الخالية ، أو الأفراد المصلحون فيها ويذكر مكافأته العادلة لهؤلاء وأنه مكن لهم فى الأرض وجعلهم الأعزة ومن عادوهم الأذلة وأنه أفاض عليهم من خيرات الأرض والسماء حتى أصبحوا فى عيشة راضية ، وحياة طيبة « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ »

«ونُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الأَرْضِ ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ونُرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » «وعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً » .

« وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت

من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً ، وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين »

فترى القرآن يسرد قصص السابقين بهذا الأسلوب المفيد المربي للافراد والجماعات السائق لها إلى فعل الخيرات وتجنب السيئات فمن أين جاء لمحمد النبى الأمى هذا القصص القديم الذى مضى عليه عشرات القرون ، ومن أين استفاد هذ التنسيق الطريف الذى لا يعرف له نحو سابق ولا مثال غابر وليس من صنع محمد ولا وضعه ولكنه صنع الحكيم العليم الذى نفذت حكمته فى كل موجود وأحاط بكل شىء علما .

ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم

إذْ يختصمونْ » .

« تِلْكَ منْ أَنْباء الغيْبِ نوحيها اليْكَ ما كنْتَ تعلمها أنْت ولا قومك منْ قبْلِ هذَا فاصبرْ إنّ العاقبةَ للْمتّقين » وصدق الله ومن أصدق من الله قيلا إذ يقول : « نحْن نقصُّ عليْك أحسن القصص بما أوحيْنا اليْكَ هذا القرْآن وإنْ كنْتَ منْ قبْله لمنَ الغافلين » .

أليس من الآيات البينة على أن القرآن كتاب الله ، تلك القواعد الجليلة التي وضعها لسعادة الفرد في حياتيه ، ولسعادة الأمم وبناء مجدها وعزها وكرامتها واستقلالها فما ترك خيرا يعود على المرء بصحة في جسمه أو رقى في عقله أو كمال في خلقه أو هداية في نفسه إلا بينه ، وحث عليه بضروب من الترغيب مختلفة . وما ترك شرا يفسد بنية الجسم أو يضر بالعقل أو يوهن الخلق أو يذل النفس ويضلها إلا حذر منه ونفر وأوعد عليه ورهب فقد أمر بالتمتع بالطيبات والزينات وأمرنا بالاكل والشرب ونهانا عن

الاسراف فيهما ، وحرم علينا الأطعمة الفاسدة من الميتة والدم ولحم الخنزير ، وأخذ الزينات ، ومن علينا بما خلقه ، وأحل لنا ماطاب من الن[illegible] وحثنا على التعقل والتفكر ، والسير وراء الحجة وكل ذلك متمم للقوة العقلية ، وذكر الأخلاق الطيبة من عدل واحسان ورأفة وبر بالوالدين ، والأقرباء ، وصبر على البلاء وعفة وشجاعة وعزة وكرامة ، وعفو وغفران ، وحمد وشكران .

وقد مدح نبيه بحسن الخلق فقال : « وإنَّكَ لَعلى خُلقٍ عَظيم » . وكفى بهذا حثا على التحلى بالفضائل ، والتزين بمكارم الأخلاق ، وأمر بتزكية النفوس وتطهيرها ، ورتب على ذلك الفلاح والسعادة فقال: «قدأفلح مَن زكَّاها» وما الشريعة كلها إلا لرفعة النفس واعلاء شأنها وتقريبها من المثل الأعلى مثل الكمال الانسانى

وكما أمر بكل ذلك وحث عليه ورغب فيه ، فانه نهى عن نقض البناء الجسمانى أو التعدى على لبنة من لبناته

فحرم القتل من الغير أو النفس ورتب على ذلك عقابا ما أشده (ومن يَقتُلْ مؤمناً متعمدا فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضبَ الله عليه ولعنهُ وأعدَّ له عذاباً عظيما »

وكتب فيه القصاص (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى » وفى قتل الانسان نفسه ونحره لروحه جاء قوله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما وامر بالقصاص فى الأطراف كما تراه فى سورة المائدة ورخص عند المرض والسفر فى الفطر والتيمم

كل ذلك محافظة على الصحة وعلى الهيكل الجسمى وابقاء لاعضائه سليمة من العيوب والأمراض لكى تؤدى وظيفتها فى الحياة كاملة غير منقوصة ونهانا عن تعاطى المسكرات التى تخامر العقول وتلعب بها وتذهب برشدها وصوابها وبين أنها مثيرة للعداوة والبغضاء وسبيل الفتنة والشحناء وصادة عن إقامة الصلاة وذكر الله وحرم كل مضر بنص قوله تعالى « قُلْ فيهما إثمٌ كبير » وما ذلك الأثم

الا الضرر فان في التعليل بذلك دليلا على تحريمه كل مضر وقد صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله «لا ضَررَ ولاَ ضِرَار» فالحشيش والأفيون والكوكايين والهروين كل ذلك قد حرمه القرآن محافظة على العقول التي تدير أمر الانسان بل تدبر كل شيء في هذا الكون تلك العقول التي ميز الله بها بني الانسان

القرآن

٤ ـ وصفه . هدايته . أثره

ومن الأدلة البينة على أن القرآن وحى الله ماتضمنه من الحقائق الكونية التى لم يكشفها علماء الطبيعة إلا من زمن قريب فالقرآن حدث بها منذ ثلاثة عشر قرنا يوم لم تكن بحوث طبيعية ولا مخترعات علمية ولا استخدام للقوى الخفية يوم كان العالم فى عماء وعلوم الطبيعة فى ظلماء لم تسلط عليها أشعة البحث ولا نور الفكر فأشار القرآن الى طرف منها ووكل الى الايام تفسيره وبيانه والانتفاع بثماره « سَنُرِيهِمْ آياتنا فى الآفاقِ وفى أنفسهم حتى يَتَبيَّن لهم أنه الحقُّ أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيدٌ » ولولا أن القرآن كتاب هداية وارشاد وتربية للافراد والجماعات لاكتاب علمي تسطر فيه السنن الكونية والخواص الطبيعية

ولولا أن حكمة الله قضت بان يكون انتفاع الانسان فى هذه الحياة من مجهود فكره ونتاج عقله وتعبه وكده وسعيه وجده « فامشُوا فى مناكبها وكلُوا من رزقه » ولولا أن الله جعل كشف العلم لهذه الحقائق آية متجددة على صدق القرآن كما أشارت اليه الآية السابقة

لولا ذلك كله لوجدت صحائف القرآن قد ملئت بشرح خواص الاجسام ماكشفه منها العلماء ومالم يكشفوه فان ربك خبير بما خلق فى الاجسام من الطبائع وهو الذى أحاط بكل شىء علما فما بيننا وبين العلم بهذه الطبائع الا أن يحدثنا ربنا عنها ومن أصدق من الله حديثا ومما حدثنا به انه وصف بدء التكوين بقوله « ثم استوَى الى السَّماء وَهِىَ دُخَان فقال لها وللأرض ائتِيَا طَوعًا أو كَرهًا قالتا أتينَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات » وقد كشف العلماء أن مادة الكون هى الأثير كما كشفوا أن طبقات الارض سبع والقرآنُ يقول « الله الذى خلقَ سَبْعَ سمواتٍ وَمِنَ

الأرض مثلهن » وحققوا أنه لولا الجبال لاضطربت الارض فى دورتها ومادت والله يقول « وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم »

وكشفوا ان منشأ التغير فى المركبات الكيماوية تخالف نسبة المقادير وفى القرآن « كل شىء عنده بمقدار » وتبينوا ناموس اللقاح العام فى أنواع النبات والقرآن يقول: « فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى » ويقول « فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » ويقول: « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين »

وكشفوا البخار والكهرباء وسخروها فى تسيير الفلك والقاطرات والترامات والسيارات والطيارات والغواصات والقرآن يقول بعد ذكر ما تركب من الحيوان من أنعام وخيل وبغال وحمير: « ويخلق ما لا تعلمون » وأمرنا الله باعداد مااستطعنا من قوة ومن رباط الخيل لنتقى به شر الاعداء وذلك فى قوله: (وأعدوا لهم ما استطعتم من

قوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ » فنص على الخيل لانها عدة للحرب فى كل زمان ونكر القوة لانها تختلف باختلاف العصور وكأن فى ذلك إشارة إلى ما يخترع من مدمرات الحروب كالطرادات والغواصات والألغام والغازات الخانقة ـ الى غير ذلك مما أشار اليه القرآن عرفنا منه ماعرفنا وستحدّث الايام عما جهلناومن آيات أن القرآن حق لاريب فيه وأنه صادر عن أحكم الحاكمين أنه قص علينا عقائد كثير من أرباب الملل كعقائد اليهود والنصارى والصابئة والمجوس وما كان يحكيها كما يحكى المؤرخون ويصفها كما يعتقد المنتحلون بل كان يميزحقها من باطلها وصادقها من كاذبها ويقضى فيها قضاءه الحق المؤيد بالدليل والبرهان فلو كان القرآن من وضع محمد الأمى لسلك سبيل المؤرخين أو الناقلين ولم يشفعها بنقد أو ابطال لايتيسر له سبيله ولا يساعد عليه تكوينه خصوصا فى المسائل التى قام عليها إجماع أو شبهة من أرباب هذه النحل

فالنصارى يقولون بعقيدة الصلب والفداء فنفى القرآن تلك العقيدة وبين منشأها بقوله فى حكاية أعمال اليهود « وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ، مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » ويقولون بالتثليث أو أن عيسى هو الله أو أنه ابن الاله فلم يجارهم فى هذه العقيدة بل قضى عليها بالبطلان فى كثير من آيات القرآن وأدحض شبهاتهم فى هذا الباب بمثل قوله : « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ » وقوله: « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ، انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » وقوله

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » وبين القرآن أنهم أوتوا نصيبا من الكتاب ونسوا حظا منه وبين قسما مما نسوا وحظا مما أوتوا فأنى لمحمد أن يعرف ذلك ولا علم له بتواريخ الاديان وما طرأ عليها من تحريف أو تغيير بل لا علم بذلك عند مؤرخي عصره أفترى ذلك من تأليف محمد ونقد محمد ؟ اللهم انه الحق من عندك ولقد وصف القرآن عيسى بالحق فرفع بذلك شأنه كبشر مصطفى — عما يقول فيه أنصاره الذين خلطوا في أمره فتارة يرفعونه الى مقام الالوهية وتارة يصفونه بما ينزل به الى أحط دركات الانسانية وما قولهم في أمه ببعيد

وكما اتبع هذا النهج مع النصارى سلكه مع اليهود فسرد عقائدهم الزائغة وأتى عليها من قواعدها بقوة الحق وسلطان الدليل « ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ان ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم » ولقد عنى القرآن

بتاريخ اليهود عناية عظيمة لأنه تاريخ مملوء بالعبر والعظات وهو أكبر مسل للأنبياء المصلحين عما يلاقونه من أممهم المعاندين ولانهم كانوا يجاورون الرسول ﷺ بالمدينة وله معهم الحوادث المعروفة أفترى رجلا يكذب على الله كما يزعمون «كبرت كلمة تخرج من أفواههم» يريد من الناس أن يلتفوا حوله أتراه يجاريهم فى آرائهم ونحلهم ولو يسيرا من الزمان لينصروا مبدأه ويعملوا تحت لوائه أم يصدمهم بتفنيد عقائدهم وتمييز غثها من سمينها الله لولا أنه يصدعهم بوحى الله وكلمه وآياته وحججه ماوقف من عقائدهم هذا الموقف الذى وقفه بعينه مع قومه الذين نشأ بينهم وتربى بين عادهم وأخلاقهم وشب فيهم وقد أتوا أمرا إدا واتخذوا لله ندا فما جاراهم ولا مالأهم ولكن صدع بالحق بينهم وقال «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» وما تصدر هذه المقالة التى تشعر بقوة فى قائلها ويقين فى مصدرها من مفتر

كاذب يختلق على الله كتابا ويدس عليه شرعا ولكنها الحق صدر من العزيز الحكيم وجرى على لسان محمد

« وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » ثم أترى محمداً — بأبى هو وأمى — يختلق على ربه ويقره على اختلاقه يمشي بين الناس عشرات السنين ثم لا يأخذ على يده ولا ينتصر منه لنفسه اللهم إن دولة الباطل ساعة ودولة الحق الى قيام الساعة « ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين (١) فما منكم من أحد عنه حاجزين » ولقد احتوى القرآن على الاصول العامة التى قامت عليها الشرائع السابقة من توحيد الله ووصفه بما هو أهله وإثبات البعث وما يليه وما يسبقه ومن قواعد الأخلاق وأمهات الاحكام والاتحاد والائتلاف الخ « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك

(١) الوتين عرق كبير من عروق الدم اذا انقطع مات صاحبه

وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » فكان ذلك آية جديدة على أنه من عند الله خصوصاً عند العالمين بالكتب السابقة والشرائع السالفة وقد أضاف إلى هذه الاصول مايلائم تطور الانسان وتقدم الزمان حتى يكون كفيلا بسعادة البشر فى مختلف العصور التى جعل فيها قانونهم العام ودستورهم الشامل العادل الذى لا يتغير ولا يتبدل فى قواعده العامة وأسسه الدائمة

القرآن هو الكتاب الذى فك العقول من قيودها وحرر الافكار من أغلالها وأهاب بها نحو التبصر والتذكر والتعقل والتفكر والاعتبار والتدبر ونعى عليها التقليد ورقه والاستسلام وذله وحرم عليها أن تقول على الله بغير علم وأن تقفو مالا تعرف وأن تحاسب سمعها وبصرها وفؤادها قبل أن تحاسب عليها « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » وقد حتم عليها أن تسير وراء الدليل فى كل شؤونها وأن تخضع لسلطانه وإن خالف عقيدة الآباء

والاجداد وإن كان ضد ما أجمع عليه الناس وتناقلوه ، وأذعنوا له وتيقنوه

ولأن القرآن يأبى أخذ الشيء من غير دليل نبين لك صدق ما قلنا بأى القرآن قال تعالى فى سورة البقرة « وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب » فبين أن تقوى الله خير زاد فى الحياتين وأمر بها ذوى العقول النيرة لأنهم الذين يعرفون بصادق نظرهم خطرها وأثرها فى سعادة المرء ، وقال فى السورة نفسها « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب » فبين أن العقلاء المفكرين هم أهل الاتعاظ والتأثر بالنصائح وأنهم العرفاء بمكانة الحكمة وجلبها للخير الكثير لمن أتسم بسمتها وما الحكمة الا وضع الاشياء فى مواضعها ولا يكون ذلك إلا إذا سبقت الأعمال بالتفكير فيها لمعرفة حقائقها ونتائجها وخيرها وشرها وقال تعالى فى سورة آل عمران « إن فى خلق السموات والارض واختلاف

الليل والنهار لآيات لأولى الالباب » فعرفنا أن المفكرين هم الذين يقفون على أسرار هذا الكون وآياته وينفذون من النظر فيه إلى معرفة خصائصه وطبائعه وقال تعالى فى سوره المائدة « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله ياأولى الالباب لعلكم تفلحون» فأفادنا أن اختلاف الخبيث والطيب فى الدرجة وعدم الاغترار بكثرة الخبيث ومجانبته إنما يقف عليه ذوو العقول السليمة أما من فى رأيهم افن وفى قلوبهم مرض فانهم يغترون بالزخارف والشهوات فيرتادونها وإن كان من ورائها المعاطب وقال فى سورة يوسف بعد أن حكى لنا سيرته وما فعل به إخوته وما كان من رفع الله مكانته « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب »

فبين أن التاريخ وحوادثه إنما ينتفع بعظاته أولو الالباب الذين يتجنبون المهالك ليسلموا من شرها ويترسمون خطا المصلحين ليصلوا الى ماوصلوا اليه من علو المكانة

ونفاذ الكلمة وجاء فى سورة الرعد « أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب » فبين أنه لا يستوى العلماء الذين عرفوا صدق القرآن بما أقام الله عليه من الآيات البينات والعمى الذين لا يبصرون مافيه من الحقائق وأن ذلك إنما يفقهه أولو العقول الذين يزنون الاشياء بميزان الحكمة ويعرفون لكل شيء درجته ومنزلته

وفى سورة ابراهيم « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا إنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب » فبين أن المعتبرين بالبلاغات الربانية وبالانذارات الالهية وبالامثال المضروبة إنما هم أولو الألباب أما قاصرو النظر فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الاليم وجاء فى سورة ص « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الالباب » فعرفنا أن القرآن كله خير وبركة لمن تدبره وهو عظة بالغة لأولى الالباب وجاء فى سورة الزمر بعد ذكر الماء وآثاره

في الأرض بانبات الزروع المختلفة الالوان التي تنتهي الى حطام « إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب » ففهمنا أن أولى الألباب هم الذين يفهمون التشابه بين النبات والانسان وإن حياة الثاني كحياة الأول ، وما بعث الانسان من رفاته البالية ، إلا كانبات النبات في الأرض الصالحة ، وجاء في السورة نفسها « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » . « فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ »

فبين أن الفائزين بالأعمال النافعة إنما هم العقلاء ، وفي سورة المؤمن والطلاق مثل ذلك وقد حثنا الله على التدبر في القرآن والتفقه فيه في سورة النساء والقتال وص ورغبنا في التذكر في أكثر من خمسة عشر موضعا وفي القرآن آيات كثيرة دعتنا الى التفكر في القرآن وتعليماته وفي محمد صلى الله عليه وسلم وحاله وفي قصص الكتاب وعبره وفي العالم

الأكبر وسمواته وأرضه وما خلق الله بينهما وما أبدع فى عالمهما ، وفى العالم الأصغر الذى أودع الله فيه من الطبائع والعقول ماجعل العالم كله مسخرا له وفيه الكثير من الآيات المرغبة فى التفهم والتعقل وذم من لايستعملون عقولهم فى التمييز بين الحق والباطل وتعرف الحقائق وأما النهى عن التقليد وتوبيخ من آثروه والأمر باتباع الدليل ففى القرآن منه الكثير مثل قوله تعالى فى الكفار «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ثم شبههم من أجل ذلك بالبهائم وقال «صم بكم عمى فهم لا يعقلون» فجعل المقلدين كأنهم لا بصر لهم ، ولا سمع ، ولا لسان ، ولا عقل فهل وراء ذلك فى التقليد من ذم ! ! !

القرآن

٥ — بلاغته . هدايته . أثره

القرآن نزل بلسان عربي مبين ، نفذت بلاغته إلى القلوب فملأتها من خشية الله والرغبة اليه وعمرتها بالايمان والعقائد الحقة فبعثت الأعضاء تعمل جليلا وتصدر عظيما فتكونت نفوس طهر باطنها ، وجمل ظاهرها ، وتمثل فيها الاخلاص ، وحب الخير للناس . ولا عجب فان كلام الله دواء النفوس العليلة ، وشفاء الأمراض الوبيلة وقوة الارادات الضعيفة وحياة القلوب الخامدة ، وباعث الأمم الخاملة ، يورثها مجدا ورفعة وعظمة وعزة فهو للافراد والأمم قوة ماأشدها وعدة ماانفعها وماكان له ذلك السلطان إلا بسحر بيانه وفصاحة كلمه ومتانة أسلوبه واتساق عباراته ، حتى أدلى بعضها إلى بعض ، ونم لك أولها عن آخرها وعاد قاصيها على دانيها ، واشتبكت قوادمها بخوافيها ، فهو سلسلة محكمة

كل حلقة لها بأختها صلة وأى صلة

جلست يوما أقرأ قوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا الا إياه وبالوالدين إحسانا ـ الى قوله تعالى ـ ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة) وأخذت أتدبر هذه الآيات كلمة كلمة وآية آية ، وأعود بأولها على آخرها وبآخرها على أولها فأدركت وربك من بلاغة القرآن وبداعة أسلوبه وفريد نظمه ، وحكيم معانيه ، مالا يعبر عنه قلم ، ولا تحيط به عبارة وكل مانستطيع أن نشير الى ذلك إشارة ، وإن أبيت الا ما ذقنا ، وحقيقة ماأدركنا ، فبهرنا وملأ نفوسنا فعليك بالتفقه والتدبر بنفس خالية من الشواغل ، وعقل جوال فى ميدان من الحرية فسيح غير متقيد برسوم أو تقاليد ، فانك ان شاء الله محس ما أحسسنا ، إن لم يكن حظك أوفى

ففى أول الآيات أمرنا ربنا بعبادته وحده ، وأمرنا بالاحسان الى الوالدين ، وتخير جل شأنه من بين أسمائه فى

هذا الموطن أسم الرب ، وهو المربى كبرهان على عبادته وحده ، فانه إذ كانت منه التربية بأنواعها كلها للانسان من جسمية وعقلية وروحية كان الشكر له وحده،وماعبادتنا إلا شكر له على ما حبانا به من النعم ، أما غيره ممن اتخذ من دون الله إلها من صنم أووثن أو نبي أو ولى ، فلا يدله على الانسان ولا تربية صادرة عن محض ذاته واستقلال نفسه فلم يكن له حظ فى العبادة فهذه الجملة (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) تضمنت الدعوى ونقيضها (عبادة الله وحده وعدم عبادة غيره) بما فيها من الحصر ، ودليل الدعويين بذكر كلمة الرب التى أفادتنا الى ذلك الحكمة فى إرداف الامر بالعبادة الامر بالاحسان الى الوالدين والبر بهما وهى أن الله مرب أكبر وكل من الوالدين مرب أصغر لان تربيتهما لولدهما بما من الله به عليهما من جسم نماه وعقل رباه وروح هداه ومال أعطاه ، فتربيتهما ليست من ذاتهما ولكن بما أفاض الله عليهما ، ولهذا لم تستوجب

عبادة هى الغاية فى التذلل والخضوع ولكن استوجبت برا وإحسانا ، فبعد أن أمرنا الله بعبادة الربى الأكبر أرشدنا إلى واجبنا نحو الربى الأصغر ، وقد فهمنا من ذلك أنه يجب علينا أن تكون تربيتنا لأولادنا على النحو الذى به ربانا ربنا فلا نعنى بتغذية الأجسام وتنميتها وندع تكوين العقول وتهذيب الارواح . وكما كانت كلمة الرب برهان على دعوى توحيد الله فى العبادة ، كانت كذلك كلمة الوالدين دون الأبوين كبرهان على وجوب الاحسان اليهما ، وقد صرح بذلك البرهان فى قوله تعالى : (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) . وكذلك فى قوله (رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا) ثم أخذ جل شأنه يشرح هذا الاحسان ودواعيه بقوله : (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا) فأمر جل شأنه بتجنب

الكلام البذىء معهما لافرق فى ذلك بين دقه وجله ، وهينه وفاحشه ، وقد أشار إلى الاول بالتأفيف ، وإلى الثانى بالنهر فان فيه توسعا فى الاهانة ، وأمر بالقول الكريم الجميل الذى يدل على طيب نفس المتكلم به وارتياح من وجه اليه كما أمر الولد بأن يخفض لوالديه جناح الذلة والمسكنة لاعن نفاق أضمره فى نفسه ولاطمعا فى مال جمعا أو فى معونة يرجوها منهما ، ولكن عن رحمة بهما ملأت قلبه ففاضت على أجنحته فاذا بها قد ضمت الوالدين وكلأتهما ومنعت عنهما العوادى وبغت كل خير يسعدان به وكما فاضت على الالسنة فترطبت بالدعاء لهما أن يسعدا فى الحياة القابلة كما سعدا ببره وإحسانه فى الحياة الحاضرة فالله قد أمر لهما بمجانبة الكلم الرذيل ، وإيثار الحسن الجميل وحسن المعاملة والاخلاص لهما والقيام عليهما بالحياطة والرعاية وطلب الخير لهما فى الحياتين فهل ترى الله يعنى بكل ذلك ولا يأمرنا بتقديم المال لهما ، وسد حاجتهما من طعام وشراب ولباس وركاب . . . . . كلا فان

الحريص لهما على حياة ناعمة ، وعيشة راضية ، وما سبيله الكمال حريص على الضرورى الذى تقوم به الحياة ، ففى طلب ما تقدم منا للوالدين طلب لما هو أولى منه فهو تنبيه بالأدنى على الاعلى .

ولما كان الانسان فخورا بأعماله مدلا بأفضاله ، وذلك إحساس بشىء من العلو والترفع وهو لا يتفق وخفض الجناح ذكره ربه بأن ما أوجبه عليه لوالديه ليس منة من الولد ، وفضلا ولكنه قضاء ماوجب وشكر ماقدما وذلك بقوله : (كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا) ولما كانت حال الكبر تستدعى رحمة وعطفاً وشفقة وبرا ، لانها حال فقد القوى ، كما أنها مظنة الامتهان والازدراء شأن الناس مع الضعفاء والفقراء لما كانت كذلك جعل الله الأمر بما ذكر عند بلوغ الكبر فهى حال أولى بالعناية وان كان غيرها جديرا أيضا بالرعاية فللوالدين حقوق يجب القيام بها فى كل أحوالهما فى الشباب والكهولة والكبر والشيخوخة وكلما تقدمت سنهما وعلا عمرهما زادت

الحقوق تقديسا فجد فى أدائها وتهالك فى القيام بها .

وقد نبهك الله بقوله بعد (ربُّكمْ أعلمُ بما فى نفُوسكم إنْ تكونوا صالحينَ فانه كان للأوَّابينَ غفورا) . إلى أنه رقيب عليك عليم بما تضمر لأبويك من خير أو شر وإجلال أو احتقار واخلاص أو نفاق وانه مجزيك بما أضمرت إلا أن تتوب من شر أخفيته وكنت من الصالحين الأوابين الرجاعين إلى الله بالندم على ما اجترموا المصلحين لما أفسدوا فان أولئك ممن يعفو الله عنهم فالآية تذييل للكلام السابق باعث على تحقيقه .

أفلست ترى - وقد سمعت تلك المعانى الفخمة فى تلك العبارات الجزلة - أن القرآن لا يجارى فى عبارته ولا يسامى فى بلاغته ان كانت البلاغة العلم الكثير فى القول اليسير ، كما يقول بعض الحكماء : أفلا ترى ذلك فيما أسلفنا ولا سيما فى الآية الأولى وإن كانت البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه مع صورة مقبولة ومعرض حسن

كما يقول أبو هلال العسكرى ـ أفلا ترى أن احترام الوالدين وإجلالهما وإعظامهما قد وصل إلى قرارة نفسك وسكن حبة قلبك ، وإنك بعد أن سمعت ما سمعت تراك كمجبور على القيام بواجبهما ، ومراعاة حقوقهما أظنك كذلك إن كنت ممن ألقى السمع وهو شهيد .

ثم انظر يارعاك الله حسن الترتيب فى قوله (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) فانه لما ذكر البر بالوالدين وهما أقرب الناس الى المرء ناسب أن يعقبهما بباقى الاقارب فأمر بايتاء كل قريب حقه من معونته بماله أو مساعدته بجاهه وصلة رحمه وتفقد أمره ، والسعى فى كل خير استطاع جلبه اليه ، ولما كان المسكين الاجنبى يمت الى الانسان بالقرابة البعدى التى نشأت عن الاصل الاقصى ، ذكره بعد الاقربين وأمر بايفائه حقه ولما كانت حاجة المسكين دائمة وحاجة ابن السبيل حاجة وقتية أتبع الاول بالثانى فترى كل كلمة تمت الى جارتها بصلة وكل آية لاحقة ترتبط بالسابقة . فالكلمات

كالآيات نظمن فى سمط واحد وكل كلمة فى مقامها واسطة عقد تسترعى الانظار وتبهر الابصار، وانظر الى موقع قوله تعالى (ولا تبذر تبذيرا) من الكلام السابق فانه وقف به المنفقين عند حد محدود فى الانفاق لا يضر بنفوسهم وأبطل به تلك القضية الذائعة (لا سرف فى الخير) وتخلص به من حيث لا يشعر الى موضوع الاسراف الذى أفاض القول فيه كما انتقل بك قبل من توحيد الله الى بر الوالدين الى رحمة الاقربين والمحتاجين بتلك الصلات التى شرحناها لك ، ثم أخذ يعلل النهى ويعلل العلة وذلك فى قوله (إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً) فالجملة الاخيرة علة لتجنب الاسراف وعادة النفس أن تسترسل اذا أخذ الحديث بعضه بأهداب بعض ، ولاسيما اذا كان ارتباط علة بمعلول ، ومعلول بعلة كما فى آيتنا هذه ثم أتى بجملة تظنها معترضة وماهى بالمعترضة ، وتلك قوله تعالى « وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم

قولا ميسورا) تخالها معترضة لانه سيحدثك عن الاسراف بعد هذه الاية وليست بمعترضة لانها تبين لك الواجب اذا لم تجد المال وتعرفك أن الكلمة الطيبة كالصدقة الخالصة كلتاهما داخلة في باب الاحسان مطالب بها الانسان، ثم نهاك بقوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) عن البخل الذى هو ضد الاسراف ، والضد أقرب الاشياء خطوراً بالبال ولم يذكره تصريحا بل مثله لك فى صورة بشعة مرذوله تنفر نفسك منها وتشمئز ، ونهى عن الاسراف مرة أخرى فى ثوب طريف من التمثيل ولم يكن ذلك التكرير ابتغاء حلية فحسب بل استخلص من بين الغل والبسط صفة ثالثة هى الاقتصاد الذى ينبغى أن يكون رائد المنفقين لأنه طريق التمتع بالثروة فى الحياة الدنيا (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما)

بين تبذير وبخل رتبة وكلا هذين إن دام قتل

وانظر إلى قوله (فَتَقْعُدَ مَلوماً محْسوراً) حيث تجد فيها برهانا على ضرر البخل واستدعائه المذمة وإطلاقه الألسنة بالقدح وعلى سوء عاقبة الاسراف حيث يفقد صاحبه الثروة ويدعه يتكفف الناس فيمد لهم يد الذلة وكانت من قبل يد العزة لولا جناية الاسراف وانظر حسن الترتيب اذ قدم علة المتقدم وثنى بعلة التالى فأحل كل كلمة فى محلها ثم بين جل شأنه أن الانفاق فى اقتصاد لايجنى على المال ولا ينتهى الى الاملاق وأن بسط الرزق وقبضه مرتبطان بمشيئة الله ذى الحكمة البالغة والخبرة الكاملة والبصر النافذ والعلم الشامل وقد قضى أن الانفاق مدعاة الاغداق وأن كرم العبد مجلبة لكرم الرب (منْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لهُ أضْعافاً كثِيرَةً واللهُ يقْبِضُ ويَبْسُطُ وإليْهِ تُرْجعُونَ) فانفق ياهذا إنفاقا ولا تخش من ذى العرش إقلالا (انَّ ربَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء ويَقْدِر إنَّه كانَ بعبادِهِ خَبِيراً بَصيرا) ثم قال جل شأنه (ولا تَقْتُلُوا أوْلادَكُم خَشْيَةَ

إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا)
فنهى بذلك عن قتل الاولاد مخافة الاملاق وكأنه دخل بك
فى واد جديد لاصلة له بالاول مع أنك لو أمعنت فى العلة
خشية إملاق ـ لاخذت منها الصلة والعلاقة فاننا فهمنا من
الآية السابقة أن فكرة الفقر لا ينبغى أن تحول دون الانفاق
المحمود وأن من تعللوا بها خاطئون كخطأ الذين قتلوا أولادهم
مخافة الفقر وما درروا أن الله تكفل برزق عباده وفتح لهم
من أبواب الثروة كلما زاد عددهم وخزائن الله لا تنفد ثم
بين تعالى أن قتل الأولاد إثم كبير وأن هو إلا كقتل
الانسان نفسه وما ولدك إلا بضعة منك ولم يبطل تعللهم
بخشية الفقر اكتفاء بابطاله السابق فآية (إن ربك يبسط
الرزق) خدمت ماقبلها وما بعدها وكذلك كلام الله يفيض
عليك المعانى من كل نواحيه ثم قال (ولا تقربوا الزنى إنه كان
فاحشة وساء سبيلا) فحرم الزنا وعلله بفحش أضراره وسوء
سبيله . وإذا عرفت أن الزنى وأد خفى وأنه قتل للحيساة

الشريفة حياة العزة والكرامة علمت متانة الصلة بين هذه الآية وسابقتها وبعد أن ذكر جلت حكمته الوأدين الواضح والخفي وكلاهما قتل الولد خاصة ، نهى عن القتل العام بقوله (وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ) وحذر السفكة العاقبة وأنها انتقام عادل بيد القوى القهار (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً) وقوله (فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ) نهى عن القتل بشبهة الحق . فترى القرآن في ذلك الأسلوب الآخذ بعضه بحجز بعض قد حرم القتل بأنواعه الخفي منه والجلي والحسي والادبي والخاص والعام ، ولم يبح من ذلك إلا قتلا بحق لاشية فيه ولا شبهة ثم أعقب ذلك بقوله (وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) ففهمنا أن أكل مال اليتيم ظلما قتل لنفس الآكل ولكنه قتل أشد وأنكى وأبقى أثراً «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً» أضف إلى هذه الصلة

أن أكل مال اليتيم اضرار بالصغير ، فكما منع التعدى على نفسه حرم أكل ماله ، فكل ذلك داخل فى باب العناية بالنشء الصغير فهما جوهرتان من عقد واحد . ثم أمر بالوفاء بالعهود التى أخذناها على أنفسنا باحترام الدماء والاموال والأعراض فالمرتكب لجريمة من الجرائم السابقة ناكث للعهود ثم انتقل من مال اليتيم إلى الأموال العامة فقال (وأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) فأمر بايفاء المكيال والميزان وأنه خير من البخس وأحسن فائدة وأجلب ربحا وإذا أمر باحترام النفوس والأموال ناسب أن يذكر الجناية على العقول وينفر منها وهل من جناية على العقل أكبر من سلبه البحث الحق والزامه بالسير وراء الغير أخطأ أم أصاب وذلك قوله (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) ثم ختم الكلام بذلك الختام الجميل الذى أفاد المسئولية العامة للانسان وأنه مؤاخذ بكل ماصدر عن جوارحه (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ

والفُؤادَ ، كُلُّ أولئكَ كانَ عَنْهُ مَسْئولاً) ثم ختم هذه النصائح بالنهى عن المشى فى الأرض مرحا وعلله بما يترك الانسان يفكر فى قوته ومنشئه ومرجعه ليضع نفسه فى الموضع المناسب لها ولا يتكبر على الناس ، وكأن هذا أمر بخفض الجناح للناس عامة كما أمر بخفضه للوالدين أول الآيات فآخر الكلام عائد على أوله وخاتمته مرتبطة بفاتحته والكبرياء لله وحده الجدير بالعبادة ، والتواضع والخشوع له من خلقه ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه ، ثم قال جل شأنه (كلُّ ذَلكَ كانَ سيِّئهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً) فبين أن هذه القبائح على مافيها من الأضرار البينة مكروهة للرب مغضبة له ، فكيف يسعى فى غضبه من يعبده حق عبادته ويوحده جد التوحيد ، فعجز الكلام يمت إلى صدره بسبب ويمت اليه بنسب ، ثم قال (ذَلكَ مِمّا أوْحَى إليكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ) فكانت مسك الختام وآية التمام ، وإن فيها لاشارة الى وضع كل كلمة فى موضعها وكل آية فى مقامها

وأن ذلك التشريع الذى شرع مبنى على الحكمة والمصلحة والخير للناس كافة

وكفى بك أيها القارىء قد وقفت على بلاغة القرآن لا من كلمات نسردها ونخبرها ، بل من مثال بيناه لك جهدنا وشرحناه طاقتنا وهو دون مافى نقومنا ، وإن هذه الكلمة لمقدمة بين يدى التحدى بالقرآن الذى نبينه . والله الهادى إلى سواء السبيل

القرآن

٦ — اعجازه . هدايته . أثره

بينا لك فيما سبق نظام القرآن البديع ، وحسن سياقه والتئام كلمه وآيه بما شرحناه لك من آيات الاسراء وكل القرآن على النحو الذى وصفناه ، وما كانت بلاغة القرآن فى حسن الوصف فقط بل انك لتجد كلماته متخيرة من لغة العرب تمتاز بالسلاسة والسهولة والخفة على الألسنة لعذوبتها وحلاوتها وصفائها ورقتها ، وليست تعافها نفسك ولا يملها لسانك إن رددتها وأكثرت من تلاوتها ، بل تراك فى كل مرة — ان كنت متدبرا — تحس لها بطعم أشهى من سابقه وأدنى من لاحقه ، فهو لا يخلق من كثرة ترداد ولا يمج من طول العهد به بل كلما ازددت له عشرة ، ازددت له محبة فهو لا يفتأ يمدك من جناه كلما اشتهيته ، ومددت يدك تقطف من ثمره .

ولقد شهد له بتلك الفصاحة أعداؤه . الذين منعهم الاستكبار عن الايمان به ، فهذا الوليد بن المغيرة يقول فيه إذا سمعه «إن أعلاه لمورق وان أسفله لمغدق (١) وان له لطلاوة وان عليه لحلاوة » .

وان الواحد منا ليقرأ القصيدة للمرة الثانية أو الثالثة وهى من غرر القصائد فيملها ولا يحس لها بأثر أكثر مما أحس به أول مرة ، ان كان فهمها وعقلها ، ولا تجد هذا فى القرآن بل يرتفع فى نظرك كل مرة حتى تجده اعتلى مكانة ان يطمع فى الوصول الى مثلها كلام البشر .

وكما لا تعثر فيه على لفظ غث أو كلمة مرذولة مستهجنة ثقيلة على اللسان ، أو السمع — لا تجد معنى من معانيه ، لا يلتئم مع الحال التى قيل فيها وسيق لأجلها بل كل ما فيه من المعانى موف بالغرض منه ، وواقع موقع الحاجة اليه ،

---

(١) أعذقت النخلة كثرت اعذاقها والعذق ما فيه الشمر والشماريخ الرفيعة .

لا يزيد عليها ولا يقصر عنها . فهو منظوم بقدر صادر عن حكمة حكيمة ، وتدبير مدبر ، ولهذا كان من سنة القرآن أن مافهم من السياق لا يصوغه فى عبارة خاصة بل عبارته السياق كله لأن الألفاظ إن هى إلا وسائل المعانى ، فاذا أمكن وصولها إلى ذهن المخاطب فى غير قالب مخصوص كان من التكرير فى غير موضعه ، صوغها فى عبارة مستقلة .

انظر إلى قوله تعالى « وَما عَلمناه الشعرَ وَما يَنبغي له إنْ هوَ إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين لينذرَ من كان حياً ويحق القول عَلى الكافرين » تجد جملا محذوفة بين قوله تعالى : « لِينذرَ من كانَ حَياً » وقوله « ويَحقَّ القولُ على الكافرين » قد دل عليها السياق ذلك أن المعنى : لينذر من كان حى القلب فيتأثر بالانذار فيؤمن فيستحق النعيم ، ومن كان ميت القلب ، مطبوعاً عليه بطابع السوء ، لا تؤثر فيه الموعظة فيكفر ، فيحق فيه العذاب ـ فكل هذه الجمل

نبه اليها السياق ، فكان من الحكمة ، ولا يجاز أن يطوى ذكرها اكتفاء بما دل عليها ، وكذلك قوله تعالى فى رؤيا الملك وإرشاد الساقى له إلى من يعبرها ويؤولها « فَأَرْسِلُونِ يوسفُ أيها الصدِّيق أفتنا فى سبعِ بقراتٍ سمانٍ يأكلهن سَبعٌ عجافٌ وسبعِ سنبلاتٍ خضرٍ وأخر يابساتٍ لعلى أرْجعُ إلى الناسِ لعلهم يَعلمونْ » فتجد جملا محذوفة بين كلمة « فأرسلون » وكلمة « يوسف » . وهى فأرسلوه فأتى إلى يوسف فقال له : يوسف . . الخ ومثل هذا فى القرآن كثير وهو طريق من طرق البلاغة فى القرآن فانه يفيدك المعنى الكثير من اللفظ القليل .

ومن بلاغة القرآن حسن فواتحه وخواتيمه ألا تراه كيف بدأ سورة القتال بقوله : « الذين كفروا وصدُّوا عن سَبيلِ اللهِ أَضلَّ أعمالَهمْ » . وهى سورة وازن فيها بين المؤمنين والكافرين ، وبين عقائد كل وأعماله ، وأخلاقه ، وما أعده فى الآخرة لكل فريق ، وقصد من هذا أن

يلهب من آمنوا لقتال من كفروا بالله ، وأخرجوهم من ديارهم بغير حق ، إلا أن يقولوا ربنا الله . فبدأ السورة هذا البدء البديع . الذى نبه به المسلمين إلى فساد طوية هؤلاء وخبث أعمالهم ، ووقوفهم فى سبيل الدعوة ، ليكون أول مايقرع أسماعهم ملهبا لهم إلى قتالهم ، وباعثاً روح الشجاعة فى نفوسهم ، خصوصاً بعد أن أخبرهم الله بأنه مضل أعمالهم ومحبطها ، وقاض عليها ومبطلها . ولذلك قال بعد ، « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ، فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ ، وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » .

وانظر كيف عقب هذا الأمر بدفع شبهة ، كثيرا ما جالت بالنفوس ، وهى لم لم ينصر الله أحبابه وأنصاره ، بدون قتال منهم وإجهاد ، وإضاعة نفوس وأموال ؟ فقال : « ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ » .

وتأمل حسن الاختتام فى قوله تعالى فى آخر سورة الاحقاف : (فاصبرْ كما صبرَ أولوْ العزْم منَ الرسلِ ولاَ تستعجلْ لهمْ كأنهمْ يومَ يرَونَ مايوعدونَ لم يلبثوا إلا ساعةً منْ نهار (بَلاغ) فهلْ يُهلك إلا القومْ الفاسقونْ) فتراه بعد أن سلى الرسول صلى الله عليه وسلم بضروب مختلفة ، وبين له سننه فى الأمم المكذبة ، وإيمان نفر من الجن به ودعوتهم قومهم إلى دينه طلب منه الصبر لاصبر المقهور . ولكن صبر الواثق بالنصر ، وأن يتأسى بأولى العزم من الرسل الذين لم يفت فى عضدهم شدة ما لاقوا من أقوامهم ، ونهاه عن أن يستعجل العذاب لهم ، ويستطيل مدة مناواتهم له فان ماقضوه فى الحياة الدنيا قليل كأنه ساعة من نهار حينما يرون ما يوعدون .

ثم نبهه إلى وظيفته وهى البلاغ عن الله فلا عليك أن كفر الناس أو آمنوا . انما عليك وظيفة فنلبب لها وشمر عن ساعد الجد فيها ، والفاسقون لا بد هالكون فهل يهلك

إلا القوم الفاسقون ؟ ولعلك إذا تأملت هذا الختام تجد له من الروعة والتأثير مالا تنم عنه العبارة خصوصا كلمة « بلاغ » فانتزعها من بين جارتيها وكررها مرات وارفع بها صوتك لا من حنجرتك ولسانك وشفتك ولكن من أعماق نفسك فانك تجد قوى قاهرة تهز الأعصاب وتحرك أوتار الأعضاء إلى التفانى فى القيام بالواجب وبذل الجهد الجهيد فى سبيله ، وتبارك الذى أحاط بكل شىء علما .

وكما تحس بهذه الروعة فى الفواتح والخواتيم ، كذلك تحس بها فى المقاصد فتجدها مصوغة فى قالب محكم بعبارة بينة لا ابهام فيها ولا غبار عليها ، تجدها فى مكان خلق لها ، إذا حولت منه إلى غيره نبا بها وأقضها فلا قرار لها ، ولا اطمئنان إلا حيث وضعها ربها الخلاق العليم .

انظر معى مرة ومرتين وثالثة ورابعة إلى سورة هود بعد أن قص الله علينا من أخبار نوح وعاد وثمود وابراهيم ولوط وشعيب وموسى وفرعون وما فعل الله بهم كيف أبان

عن الغرض من هذا القصص ، وتقصى عن تبعة اهلاكهم بقوله : « ذلكَ منْ أنباءِ القرَى نقصهُ عليكَ منها قائم وحصيدٌ . وما ظلمناهم ولـكنْ ظلموا أنفسهمْ فما أغنتْ عنهمْ آلهتهمُ التي يدعون منْ دونِ اللهِ منْ شيء لما جاء أمر ربكَ وما زادوهمْ غير تتبيبٍ . وكذلكَ أخذُ ربكَ إذا أخذَ القرى وهي ظالمةٌ إنَّ أخذهُ أليم شديدٌ انَّ في ذلك لآية لمنْ خافَ عذابَ الآخرةِ ذلك يوم مجموع له الناس وذلكَ يوم مشهودٌ »فانظر كيف لخص هذا القصص الطويل وأحضره كله في خيالك بهذه العبارة الموجزة « ذلكَ منْ أنباءِ القرى نقصهُ عليك » . وأضاف اليه تفصيلا جديدا لما نستفيده من سابقه وذلك في قوله «منها قائم وحصيدٌ» فأفادك في آية قصيرة اجمال المطول وتفصيل المفصل ، وإن ذلك وربك للايجاز المعجز .

ثم نزه نفسه اتم التنزيه من تبعة الاهلاك وألقاها على عاتق هؤلاء بتلك الكلمة الفخمة « وما ظلمناهمْ ولـكنْ

ظلموا أنفسهم » وبين لهم أن الانداد الذين قضوا حياتهم في خدمتهم وعبادتهم واللجوء اليهم والاستشفاع بهم لم ينفعوهم في هذا الوقت العصيب بل زادوهم خسرانا وتتبيبا

وفي هذا توبيخ وتقريع لأولئك المشركين الذين صموا عن دعوة محمد وعكفوا على أصنامهم يتقربون بها إلى الله زلفى ولن ينالوا منها إلا ما نال هؤلاء لما جاءهم عذاب ربك . ثم بين سنته في أخذ الظالمين وأنها أخذ شديد موجع وذلك بقوله (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) ثم أفصح عن الغرض من هذه السير التي قصها علينا بأسلوب بليغ تخللته الحكم والعبر بقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ) فبين أن الغرض الأسمى من الاعتبار بالماضين لنقلع عن سيئاتهم ، ونسلك غير سبيلهم ، وأفادنا أن التأثر بهذه المواعظ إنما هو لمن آمن بالبعث وخشي عذاب الآخرة ؛ وأنه لعذاب حقيق بالخشية وقد بين هوله وعظمه بقوله (ذَلِكَ يَوْمٌ

مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) فتصور عذابا أليما يحضره الأولون والآخرون ، والخالق والمخلوقون أنه لخزى وأى خزى وفضيحة ما وراءها فضيحة ، وألم ليس فوقه ألم وقانا الله شره وكفانا ذله

وإذا فتشت القرآن وجدته كله على هذا النمط البديع ، الذى يسحر العقول ويأخذ الالباب ، ويقود النفوس الى سعادتها فى الاولى والآخرة ، ويأخذ بحجزاتها عن الشر ومواطنه والعذاب وموقعه .

ولعلك بعد ان سمعت ما سمعت وهو قل من كثر ، بل قطرة من بحر ، آمنت ببلاغة القرآن وانه فى مرتبة عالية لا يتسامى اليها كلام البشر وان كنت لا تزال فى ريب من بلاغته فاقبل اليه واتله وتدبره فى جو هادىء وبنفس مطمئنة وبذهن حاضر ، فانك إن فعلت وجدت يقينا يثلج صدرك وتأثيرا يفتح جفنك عن دموع هاتنة ، وعيون فائضة (وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا

من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) وإذ ذاك تؤمن بالبلاغة إن كنت لما تؤمن ـ وما البلاغة الا وصول الكلم إلى أعماق النفس فتحركها الى مايريد المتكلم ـ وتعرف السر فى ان العرب طرا وقفوا من دون بلاغة القرآن مبهوتين يقرعهم القرآن بحججه ويرسل اليهم من قوارص كلمه ويسفه أحلامهم ويضع من آلهتهم ، يخطئهم فى آرائهم ، ويجهلهم فى طرائقهم ، ويرميهم بالعجز عن محاكاته والنسج على منواله وانهم إن قدروا على مثله حق لهم أن يتهموه بالافتراء على الله والبهتان عليه ، وتنازل عن دعواه وخضع لحكمهم ، ورجع الى أقوالهم ، وسايرهم فى عقائدهم ، وشايعهم فى أعمالهم ، فوقفوا صاغرين ، وجبنوا فى ميدان البلاغة وهم فرسانها السابقون والمجلون ، وهرعوا الى السيوف ينتضونها ليقضوا على « محمد » وحزبه ، وعرضوا دماءهم للاراقة واموالهم للغنيمة ، وقد كان فى الكلم غناء عن الكلوم لو انها كانت فى مقدرتهم وطاوعت عليها ألسنتهم ، ولكن جبنوا عن القول وشجعوا فى الحرب

وأداروا رحى الحرب سنين حتى أكلت صناديدهم وقضت على عزمهم فدارت عليهم الدائرة ، وتمت للقرآن الكلمة (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لامبدل لكلماته وهو السميع العليم) فهل كنت ترى العرب قادرين على أن يجولوا في مثل أسلوب القرآن ثم ينكصون على أعقابهم ويسلكون سبيلا وعراً وأمامهم للقول طريق معبد ؟هيهات هيهات .

لقد وقف القرآن معهم فى تحديه ثلاثة مواقف ، فطلب منهم أول الأمر أن يأتوا بمثله فما نبسوا بكلمة ، وحكم عليهم بالعجز ولو أضافوا اليهم أمم الارض قاطبة ، ولو أضافوا إلى عالم الانس عالم الجن ، فلو تظاهروا جميعا على محاكاة القرآن ماستطاعوا إلى ذلك سبيلا (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً . وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً)

ثم تنزل معهم القرآن وخفف عليهم الوزر، وطلب اليهم أن يأتوا بعشر سور مثله تدانى سوره فى الفصاحة والبلاغة، وعلو الاسلوب وانسجامه ومعانيه الحكيمة. فما لفظوا بعبارة بل رأوا فى نفوسهم تقاصرا عن إدراكه، وعجزا عن مجاراته، وذلك قوله (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

ثم تدلى بهم الى مرتبة دنيا وحال قربى هى أقل ما يطلب من مدع للبلاغة زاعم قوته على المعارضة فتدبهم إلى سورة واحدة يحاكون بها سوره وطلب اليهم أن يستعينوا بكل مخلوق من إنس وجن وملك وعابد ومعبود من دون الله، فما استطاعوا قولا وما آمنوا ترفعا وكبرا (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ

أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

وقد حكم عليهم العليم بقوى خلقه وقدرهم أنهم لن يجاروا القرآن ولن يباروه ، وطلب اليهم إذ لم يفعلوا أن يتقوه ، فهل بعد تلك المنازلات الثلاث منازلة ؟ اللهم أنه قول الحق صدر عن علمك المحيط ، وقدرتك الباهرة التى خضع لها كل شىء فى الكون وعزتك العالية التى تغلب ولا تغلب ، وتقهر ولا تقهر .

وإذ قد علمت طرفا من بلاغة القرآن وقد نزل بلسان عربى مبين لا نرى من الحكمة أن يترجم إلى أى لغة أخرى وإن كان شريعة للناس عامة عربهم وعجمهم شرقيهم وغربيهم ولا أحول بذلك بين البشر وتعليماته وحكمه وأحكامه ، بل أرى المصلحة فى أن يعبر عن القرآن بعبارة عربية تفسره وتبينه لا تزيد على معناه ولا تقصر عنه ، يقوم جماعة ممن درسوا القرآن دراسة وافية ، وعرفوه حق المعرفة ، ولم يكن للتعصب على نفوسهم سبيل ، ولا للمذاهب فى نفوسهم

أثر يصيبهم حبه عن صريح القرآن او ظاهره فيفسرونه حسب مايتفق ومذاهبهم، ويؤولونه حتى لايتعارض وعقائدهم ثم يطلقون على مؤلفهم هذا « بيان القرآن أو « معاني القرآن » ثم يترجم هذا إلى اللغات الاخرى ، ويقوم بالترجمة جماعة من خيار المسلمين الذين أشربت قلوبهم حب الدين ، وكانت لهم قدم راسخة فى اللغة العربية واللغة المترجم اليها

وإذ ذاك نكون قد حفظنا نص القرآن الاصلى من التحريف والتبديل ، لانه لايكون للقرآن أصول متعددة بتعدد اللغات بل أصل واحد ونكون بذلك قد مهدنا الامم الاجنبية سبيل القرآن وجعلناه فى متناول كل فرد عارف لغته ، ولعلنا نكون بذلك قد قمنا ببعض الواجب من التبليغ الذى لايزال دينا فى عنقنا لهذه الامم الشرقية والغربية التى لم تعرف ديننا ولا لغتنا الآن اللهم الا اليسير الذى قد يكون بعدل عن سنن الشريعة وحجة على الاسلام لاله. فاللهم اهدنا صراطك المستقيم ووفقنا لنشر هذا الدين الذى أخذت علينا الميثاق لنبيننه للناس ولا نكتمنه انك نعم المولى ونعم النصير .

القرآن

٧ ـ وصفه . هدايته . أثره

لو كان لمحمد ﷺ يد في القرآن ولم يكن من عند العليم الحكيم ما وجدت فيه تلك الآيات التي تعاتب رسول الله ﷺ على بعض أعمال أتاها ، أو آراء أصدرها ، فإن النفس مجبولة على أن تظهر نفسها للناس في خير مظهر ، لاسيما إذا تصدت للإرشاد العام ، والزعامة المطلقة ، والقيادة للخليقة كافة ، فهي تحرص الحرص كله على أن تكون ساحتها مبرأة مما يشينها وأن تكون أعمالها بمنجاة من اللائمة ، ولئن صدر عنها ما لا ينبغي فإنها تسعى في إخفائه ، ولا تفشيه للناس فيجد العدو منه بابا للطعن ، ويجد ضعيف الإيمان بالمبدأ سبيلا إلى إلقاء الحمل الذي تحمله ، والعهد الذي التزمه.

أفترى بعد ذلك أن محمداً ﷺ تصدر منه هنات وكانت خفية على قومه وأصحابه فيعلنها للناس طراويضعها في كتابه الذي جعله قانونا لهم ومرجعاً عن كلامه يصدرون

وبأوامره يصدعون ، وبأخلاقه يتخلقون ؟أترى محمدا يقول لنفسه (ولو تقول (١) علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين (٢) فما منكم من أحد عنه حاجزين) ؟ أترى محمداً يعنف نفسه ، ويذم أعمالا صدرت عنه وينهاها عنها بقوله (عبس وتولى أن جاءه الاعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى * كلا) ؟

أترى محمداً يأذن لبعض المنافقين بالتخلف عن الغزو ثم يدون بيده فى كتابه خطأه فى هذا الاذن ؟ وذلك في قوله (عفا الله عنك لم أذنت لهم ؟ حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين)

أترى ـ بصرك الله طريق الرشاد ـ أن محمداً يمنع نفسه بعض ما أحل له بغير سبب وجيه ثم يلوم نفسه بعد على

---

(١) اختلق وقال على الله مالم يقله (٢) عرق كبير يحمل الدم

المنع بقوله (يا أيها النبي لم تحرم ما احل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم)

أترى محمداً يخشى ملامة الناس فى تنفيذ أمر أمره به ربه لانه يقضى على عادة ذائعة بين قومه مستحكمة فى نفوسهم ، ولا يسارع حياء الى تنفيذ الاوامر الالهية ثم بعد ذلك يخبر الناس بما كان منه وهو أمر نفسى لم يطلعوا عليه ، فهل ترى محمداً يتهم نفسه على مشهد من الناس بما لا يعرفونه عنه ، وذلك فى قوله فى قصة زيد وزينب (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)

أترى محمداً يتخذ أسارى من صناديد قومه فى غزوة بدر بعد أن استشار أصحابه ويقبل الفداء منهم لتحرير رقابهم ثم ينكر على نفسه ما عمل بعد أن أحكم الرأى بالمشورة وذلك قوله

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

أترى محمدا - بأبي هو وأمي - يحدث عن نفسه بأن قومه كادوا يفتنونه عن الذى أوحى اليه وانه كاد يركن اليهم لولا أن ثبته الله ، ولو كاد لأصابه من العذاب مالا قبل له به ، أتراه لو كان القرآن من عنده يحدث الناس بذلك في قوله «وإنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وإذا لاتخذوك خليلا * ولولا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا)

أتظن محمداً وقد نصب نفسه إماما للبشر كافة فى مكارم الأخلاق ، وجلائل الأعمال ، ينسب لنفسه فى قرآن اختلقه كما يزعم الظالمون - ذنوبا تستوجب الاستغفار ، والجد فى

الحسنات لتغفر له ألم تقرأ قوله تعالى (فاعلمْ أنهُ لا إلهَ إلاَّ الله واستغفرْ لذنبكَ وَالمؤْمنين والمؤمنات) وقوله (إنَّا فَتحنا لك فَتحاً مبيناً ليغفرَ لَكَ اللهُ مَا تقدَّم من ذَنبك وما تأخَّرْ)

ما كان محمد ليضع نفسه موضع النقد والعتاب واللوم، وينسب لنفسه الخطأ والذنب لو كان القرآن من صنع يده ولكنه الحكيم العليم، ورب المربين، تولى تربية عبده بما أنزله عليه، وبين له أعماله ليقفه على موضع الهفوة ليتجنبها وليحذر أتباعه من أمثالها، وليكون ذلك آية للناس على أن محمداً ﷺ لا يد له في القرآن، إن هو إلا وحي الله يصدع بالحق، ويبين الصواب، ولو كان على محمد، وكان البيان له

ربما تقول: إن محمدا أنصف من نفسه فلما فكر فيما رأى أو عمل وتبين له الصواب نطق به وخطه في كتابه ليظهر نفسه في مظهر النصفة، والحكم على نفسه، وهذا

أدعى لاجلاله واحترامه ، ولكن أترى شخصا يبلغ سلطان الحق على نفسه الى هذه الدرجة يفترى على الله كذبا ، وهو من لاتخفى عليه خافية ؟ إن كذبا على الله ليس كالكذب على أحد ، فلا يستبيح الاول إلا من تدنس بالثانى ، وبلغ فيه الغاية .

ثم أترى النفس الصافيه الطيبة التى ترجع على نفسها باللائمة وعلى أعمالها بالحساب والنقد أترى هذه تختلق على الله وتكذب على أمة وتضلها الطريق ؟ إن هذا لبعيد فمحمد ﷺ مانقد نفسه ، ولا عاتب ولا عنف ، ولكنه كلم ربه أراه به طريق السداد ، وسبيل الرشاد

فتلك آية بينة إلى الآيات السابقة تنطق بأن القرآن كتاب الله لاتصنيف محمد الأمى ، الناشئ فى أمة أمية لاتعرف من علوم الاجتماع شيئا . وهنا فى القرآن آيات كثيرة وحجج دامغة وأدلة مقنعة على أنه وحى الله ولكنا نكتفى بما أسلفنا فيما سبق ، والنفوس الطاهرة ،

والعقول النيرة ، لاتحتاج إلى البراهين الكثيرة ، بل متى عثرت على برهان واحد لايتطرق اليه شك ، ولا تحتمل مقدماته طعنا أو نقضا أذعنت للحق ، وما يأتيها بعد ذلك لا يزرع العقيدة فيها ولكنه يقويها وينميها ويزيدها إيمانا إلى ايمانها . والنفوس المخبثة والعقول الملتوية شأنها ألا تقنع مهما سقت لها من الأدلة وأقمت لها من البراهين الواضحة وضوح الشمس فى رائعة النهار (خَتَمَ اللهُ عَلى قلوبِهِمْ وعلى سمعِهِمْ وعلى أبصارِهِمْ غشاوَةٌ ولَهُمْ عذَابٌ عظِيمٌ)

ونريد أن ننتقل بك إلى بيان أثر القرآن فى حياة الفرد وحياة الأمم ، وإلى الخير العظيم ، الذى أفاضه على العرب الذين لم يكن لهم ملك كملك جيرانهم من الفرس والروم .

نزل القرآن على محمد ﷺ بعد أن لبث فى قومه أربعين سنة أى بعد أن بلغ أشده واستوت قوته وتكونت طباعه وتبين اتجاه ميوله ، نزل عليه وهو بين قومه كواحد منهم

لم يعرف عنه أنه خطيب مصقع أو شاعر نابه أو زعيم قائد انما عرف بينهم بأنه شريف النسب طاهر الذيل . اشتهر فيهم بالأمانة والصدق إلى صفات أخرى من هذا الوادى فماذا ترى فى نفس بلغت الأربعين ؟ أترى أن تأديبها ، وتهذيبها ، وتغيير عاداتها وأخلاقها أمر هين وقد تصلبت العادات وأخذت فى النفس مجرى يتعسر تحويلها عنه .

لو أن هذه النفس عنى بتكوينها وتربيتها من الصغر لكان لنا أن ننتظر منها ثمر تلك التربية فى الكبر ولكن ماذا زرعنا فيها شجرا حتى نقطف منها ثمرا ولكنها تركت غفلا حتى صادفتها عناية الله ونزل عليها غيث الوحى فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج فاجأتنا بما لم يكن فى الحسبان وبما لا نرقبه منها فى مثل هذا الأوان ، وبما لم نعهد مثله بعد أن مضت سن التكوين والتربية والتهذيب ، تغيرت هذه النفس تغيرا كليا فبعد أن كانت لا تحدث نفسها بزعامة قبيلة — إذ لم يعرف ذلك عنها — أصبحت تنادى على

رءوس الأشهاد : أنى رسول الله اليكم خاصة وإلى الناس عامة إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، أنى رسول الله وخاتم النبيين ودينى قائم الى الساعة وكتابى محفوظ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها انى لا أرضى بجهالات قومى ، ولا بأصنام يعبدونها ، ولا بأوثان يقدسونها ولا بحروب يقيمونها لحمية باطلة وأنفة كاذبة إنما هى خطة جديدة وطريقة رشيدة أدعوكم لسلوكها ، فاما أجبتم فالملك لكم فى الدنيا والسعادة فى الأخرى وإما عصيتم فذلة فى الحياة ، ومهانة وسعير فى دار آتية وراساعة قائمة لا تبقى ولا تذر ، تبدل فيها الأرض غير الأرض والسموات ، تدك فيها الجبال دكا وتصير هباء منبثا ، تجعل الأرض صعيدا جرزاً ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا .

ماهذه الدعاوى العريضة ؟ وما تلك التخيلات الواسعة وما هذا الذى يحدثنا عن المستقبل ؟ ومتى تكلم محمد وادعى حتى يرمى بتلك التخرصات ، ويدعى العلم بخبر الأرض

والسموات ؟ ماعهدناه إلا رجلا صامتا مشتغلا بطلب العيش في رعي غنمه ، والتجارة في مال غيره .

ماهذا الذي غير نفسه في لحظة أجن جنونه؟ أتحدثت اليه الشياطين ؟ أأصابه مس من الجن ؟ ماذا دهاه ؟ ماذا عراه ؟ ماله ماله ؟ كلا ، ما أصدر عن جنون وكله معقول ، وإن هو إلا الحكمة تتفجر من نواحيه ، ما تحدثت اليه الشياطين وهو يتحدث بما به صلاح أهل الأرض وما به يقوم الملك ، وما ينهج به العالم نهجاً جديدا في تقويم أخلاقه وتخير أعماله ، ماأصابه مس من الجن ، وأنت إذا جالسته سمعت منه كلمات معدودة صدرت عن فكر عميق ، وعقل رزين ما عرته غاشية أضلته طريق الصواب ، مادهته نائبة أرضية أو سماوية تركته في غفلة وذهول أو خلقت له علة ومرضا فالجسم منه صحيح والعقل منه موزون ، والرأي حصيف والكلام حكم

لا لا : لم يكن شيء من ذلك بل أنطقه الله الذي

أنطق كل شيء ، أنطقه بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أنطقه بالقانون العام وروح الهداية الشاملة ، أخرج من فمه نورا ربانيا يضيء للعالم الطريق السوى ، ويعرفه مواطن الشر فيتجنبها ، وطرق الخير ليسلكها

أنزل عليه كتابا يدرسه ويقرؤه ويكرره ويتدبر في آيه ليربي به نفسه ويهذب به خلقه ويسمى مبدأه ، ويعلى أغراضه ويجعله أهلا للقيادة العليا والدعاية الكبرى والامامة للناس قاطبة — ولقد كان لرسول الله ﷺ كل ذلك ، فما خلق في القرآن الا كان له خير مظهر فكان عادلا محسنا برا رحيما ثبتا صبورا حامدا شكورا ، حكيما في دعوته بدأها بالكلام سرا ثم صدع بأمر الله جهرا ثم أضاف إلى لسانه سيفه ولكن لم يستعمله الا بعد أن أوذى في سبيل الله وأخرج هو وصحبه من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . لم يستعمله الا اذا أخلفت وعوده

أو نقضت عهوده أو اعتدى عليه أو على أحد من أنصاره

وكان ﷺ وفيا أمينا شجاعا رزينا شهما كريما عفيفا قنوعا رضيا بكل ماوصل اليه من متاع هذه الحياة بل راضيا بالبأساء والضراء متى كان ذلك فى مرضاة الله ، وفى سبيل إعلاء كلمته حريصا على نشر الدين بكل مامك من قوة وكادت نفسه تذهب حسرات على قومه الذين لم يتقبلوا خيرا جاءهم به من عند الله وهو شرف لهم وذكر (فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) إلى غير ذلك من الاخلاق العالية التى إن أردت المزيد منها فعليك بالقرآن فما خلق فيه إلا والرسول متخلق به كما قالت السيدة عائشة لما سئلت عن خلقه قالت كان خلقه القرآن

فأعلى النفوس آدابا وأخلاقا نفس محمد التى أدبها ربها فأحسن تأديبها فهو المثل الأعلى لمن رام متانة فى خلقه وكمالا فى أدبه وهو كما قال له ربه (وإنك لعلى خلق عظيم) وكما علمه القرآن وهذبه أعلى نفسه عن سائر النفوس حتى

وأنها أهلا لما لا يستطيع غيرها فتصدت للارشاد العام وجدت
فى تكوين أمة على أمتن ما يكون من أسس الاجتماع
وأصول العمران جمعها من شتات وكونها من أوزاع
أشربت قلوبهم حب الحروب وأورثوا الحمية فى الحق وفى
الباطل كون تلك الامة أولا تكوينا خلقيا فربى نفوسهم
وهذب أرواحهم بالوحى الذى أنزل عليه وبالظهور لهم مظهر
الاسوة الحسنة ، والقدوة الصالحة ، فتغيرت تلك النفوس
وتحولت أخلاقها ، وعلت مبادئها ، وطهرت منها الارواح
وزكت وقويت فيها الارادات ونمت ، فالتفت هذه النفوس
الطاهرة حول ذلك المثل الاعلى ، وأحكموا الصلة بينهم
وبين ربهم الذى من عليهم بكل شىء فى الحياة وكانت
أكبر منة لهم بعث محمد فيهم رسولا يحمل كتاب الله المقدس
ليخرجهم به من الظلمات الى النور ويهديهم به صراطا
مستقيما فلما استحكمت صلتهم بالله بما كانوا يقيمونه من
عبادات فى نهارهم وفى جوف ليلهم ، ومكنوا صلتهم بامامهم

وبينهم رجعوا إلى نفوسهم فأحكموا العلاقات فيما بينهم بما كانوا يترسمونه من معالي الامور ويسلكونه من طيب المعاملات فكان خلق المحبة والايثار في هذه النفوس من أنبل صفاتها وأكرم أخلاقها وكانت شجاعتهم النفسية في تحمل المكاره في سبيل المبدأ الجديد الذي اعتنقوا أقوى شجاعة. ولست أريد الساعة ان أحدثك عن الشجاعة في حروبهم فذلك له موطن آخر

فلما صفت نفوسهم وتكونت خير تكوين وحسنت صلتها بالله من له جنود السموات والارض وبامامهم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وباخوانهم من المؤمنين وأصبحوا وحدة عامة وكتلة قوية يرعاهم الله بعنايته ، ويقودهم محمد برسالته ويعززونه وينصرونه بنفوس عالية وأخلاق زاكية لما اكتمل لهم ذلك وهو العمل الأولى في بناء الامم بناء مبنيا على دعائم لاتزعزعها نوائب الايام وصدمات الدهر . سار بهم الى بناء الملك وكون بهم تلك الدولة الاسلامية التي بهرت العالمين ؟

القرآن

٨ ـ أثره فى الأحوال الخلقية

لصاحب العزة محمد جاد المولى بك

لما كان المنزل هو المربى الأول الذى يتعلم فيه الانسان الآداب الخلقية ويألفها أوجب القرآن الكريم طاعة الوالدين : « وَقَضَى رَبُّكَ ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »

ولم يرخص فى عصيانهما إلا اذا أرادا أن يحملاه على الاشراك بالله : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا »

هذا الاحترام العظيم للوالدين هو الأساس الذى بنيت عليه فضيلة الطاعة لأولياء الأمور . « يا أيها الذين آمنوا

أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » وليس المراد بأولى الأمر الحكام فقط بل يشمل كل من أعطى سلطانا ونفوذا ، يشير الى ذلك قوله ﷺ : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته »

ومن هذا يتبين أن دين الاسلام يطالب الناس جميعهم بالطاعة لمن فوقهم ليجتث بذلك أصول الفوضى والمخالفة ويثبت دعائم الطاعة

بنى القرآن الكريم الاخلاق على فضيلة واحدة هى «التقوى» وقد دل تصفح الآيات الكريمة التى وردت فيها هذه الكلمة وما اتصل بها من المشتقات على أن المراد منها أن يتقى الانسان كل ماكان فيه ضرر لنفسه أو إضرار لغيره ، لتكون حدود المساواة قائمة فى المجتمع الانسانى لا تحصل فيها ثلمة ولا يطرأ عليها وهن : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقد جاء فى الحديث : « لا فضل لأحد على

أحد إلا بالتقوى »

والآية صريحة فى أن الغاية الاجتماعية للناس: شعوبا وقبائل هى التعارف وتلك كلمة لا تشذ عنها فضيلة من فضائل الاجتماع قاطبة ولا يمكن أن تدخل فى مدلولها رذيلة اجتماعية. وفى هذه الآية الكريمة أقام القرآن الاساس الخلق العظيم فجعل أكرم الناس المتساوين فى الحالين الفردية والاجتماعية هو أتقاهم أى أعظمهم خلقا لا أوفرهم مالا ولا أكثرهم رجالا ولا أثقبهم فكرا ولا أعظمهم علما ولا شيئا من ذلك مما لا يصح أن يكون سببا للتفاضل إلا فى إدبار الدول واضطراب الاجتماع وفساد العمران

فالحقيقة أن التقوى هى الخلق الكامل ، ومن أجل ذلك كان العدل فى رأى القرآن أقرب شىء الى التقوى إذ يقول الله جل شأنه: «ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى »

وقد رد القرآن مظاهر التقوى الى ثلاثة أشياء:

الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والايمان بالله وهذه الأشياء الثلاثة هى المبدأ والنهاية لكل قوانين الأدب والاجتماع قال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »

والمعروف : كل ما يعرفه العقل الصحيح حقا ، ولا يتأتى الأمر بالمعروف إلا إذا توافر استقلال الارادة ، وقوتها . والمنكر : هو كل ما ينكره العقل الصحيح ، ولا يمكن النهى عن المنكر . إلا باستقلال الرأى وحريته . والايمان بالله هو الاعتقاد بوجوده ووحدانيته . ولا يتم ذلك إلا إذا خلصت النفس من أسر العادات والأوهام بالنظر والفكر فى مصنوعات الله ، وهذا هو الايمان الذى يبعث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بثقة إلهية لا يعترضها شىء من عوارض الاجتماع . التى تعترى الناس من ضعف الطباع الانسانية كالجبن والنفاق وإيثار العاجلة وما إليها .

فان هذه الصفات لاتتحقق مع صحة الايمان بل هى أنواع من العبادة للقوى والمستبد ، وللشهوات والنزعات وما شابهها وذلك لايتفق والايمان الصحيح بالله .

ما تدبر أحد القرآن إلا وجده يمنح كل انسان إرادة اجتماعية أساسها الحرية «وَقلِ الحقُّ منْ ربكمْ فمنْ شاءَ فَليؤمنْ ومنْ شاءَ فَليكفرْ»

«فَمنْ اهتدَى فانما يَهتدِى لنفسهْ ومَنْ ضَلَّ فانما يضلُّ عليها وما أنا عليكمْ بوكيلْ»

ولذلك لما اتخذه الجيل الأول فى صدر الاسلام مثالا لهم ، واتخذوا آدابه الخلقية شعارا لهم حقق لهم هذه الارادة الاجتماعية . ولو أن العلوم كلها ، والفلسفة وأهلها كانت لأولئك العرب مكان القرآن ما أغنت عنه شيئا . لأن الفضيلة العقلية التى أساسها العلم لاتوصل حتما الى الارادة العملية .

أما الفضيلة الخلقية التى جاء بها القرآن فانها تسوق

إلى الارادة العملية لأن هذه الارادة مظهرها ولا سبيل لظهورها غير العمل ، ومتى صحت إرادة الفرد واستقلت له وجهته فى الجماعة . فقد صار بنفسه جزءا من عمل الامة ، والأمة التى تتألف من مثل هذا الفرد تشغل مكانة سامية فى تاريخ الاجتماع .

والمتأمل فى القرآن الكريم يرى أن جميع آدابه ، وعظاته ترمى الى بث الروح الاجتماعية فى نفوس أهله . فكانت هذه الروح هى السبب الأول فى انتشاره ، حتى بين أعدائه الذين أرادوا استئصاله كالتتار والمغول وغيرهم ممن اشتدوا عليه ليخذلوه . فكانوا بعد ذلك من أشد أهله فى نصرته والغضب له .

ليس للقرآن طرائق للدعوة اليه إلا الأسوة : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسوةٌ حسنة » . فالأسوة أو القدوة مظهر آدابه ، ولذلك كان كلما وجدت طائفة من أهله ، وجدت الدعوة اليه ، وإن لم ينتحلوها ويعملوا لها ،

وما استحث أحدا بالعطايا . لأنه الدين الطبيعي للانسان تأخذ فيه النفس عن النفس بلا وساطة ، ولا حيلة في الوساطة

وما أفصح ما ورد في صفة القرآن من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : — « فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل » .

القرآن

٩ ـ نبع العلوم

للأستاذ الشيخ حسين خليل شمس الدين

يابن العروبة سر فأنت الأسبق
بطريق مجدك فالنجاح محقق
هذا هو القرآن نبراس الهدى
دستورك الأسمى المنير المشرق
آياته نبع العلوم جميعها
من قال : لا : فهو الغبي الأحمق
علم الطبيعة والحياة وحكمة ال
إيجاد من تبيانه تتدفق
وسياسة الدنيا بأقوم شرعة
بين الورى بسواه لاتتحقق

فيه القضاء لحل كل قضية
عن حلها أهل السياسة أخفقوا
في كل يوم نقضهم ما أبرموا
بالأمس والقرآن قاض ينطق،
قل للفلاسفة أرجعوا بعقولكم
وامشوا على نور الاله وحققوا
مهما تعمقتم فان بحوثكم
في ساحل القرآن . لاتتعمقوا
عفوا أولى الألباب لاتستثقلوا ا
قرآن فالقرآن روح يعشق
غوصوا بحار النور من آياته
تستخرجوا درر الحياة وترزقوا
عودوا إلى القرآن عودة باحث
ترك الهوى . والعقل حر مطلق
وخذوا دساتير الحياة جميعها
من آيه وعلى الخليقة أشفقوا

فهو الدواء لكل أدواء الورى
وهو الطبيب لكل سقم صدقوا
فالغرب لما سار سار بنوره
وعلا وقبل الغرب سار الشرق
يا فتية الذكر الحكيم إلى مى
هذا التأخر والأعاجم حلقوا
لستم على القرآن إن لم تنهضوا
وتجددوا عهد الرسول وتصدقوا
لستم على القرآن إن لم تعملوا
بأوامر القرآن : يا قوم اتقوا
لستم على القرآن إن لم ترفعوا
علم الشريعة والنجوم تسفق
يا قوم أحمد عودة لكتابكم
فهو النجاة ، وان أبيتم تفرقوا
يا قوم أحمد مجدكم قرآنكم
فهو الكتاب العالى الأصدق .

من مطبوعات الجماعة

مليم	قرش	
٠	٣٥	(بهجة النفوس) لابن أبي جمرة أربعة أجزاء شرح أحاديث البخاري خالص أجرة البريد.
٠	١٠	(محمد رسول الله). صفحة ناصعة من حياته صلى الله عليه وسلم خالص أجرة البريد.
٧	٠٠	صور من الأدب الديني أو صفحة من حياة الامام علي بن أبي طالب خالص أجرة البريد.
١١	٠٨	مجموعة التقوى للسنوات الأولى خالصة أجرة البريد
٨	٠٨	ثمن احدى مجموعات مجلة التقوى للسنوات الآتية سنة ١٣٥٢، ١٣٥٣، ١٣٥٤، ١٣٥٥، ١٣٥٦هـ خالصة البريد
٤	٠١	الرسالة المحمدية وأثرها في العالم أو ذكرى المولد النبوي خالص أجرة البريد.
٤	٠٢	صحائف مطوية عن بلاد النوبة خالص أجرة البريد
	١٢	محاضرات اسلامية للاستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف.
	٢	رسالة في القرآن للمرحوم الشيخ محمد عبد العزيز الخولي
		رسالة في البدع والمنكرات للاستاذ صادق عرنوس

تطلب هذه المطبوعات رأسا من إدارة مجلة التقوى
بشارع فؤاد رقم ٥٠ عبرا مصر